هذا هو الإسلام
(٢)

السماحة الإسلامية

حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإسلام

(٢)

* السماحة الإسلامية

* حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

الطبعـــة الأولى
١٤٢٦ هـ ــ ديسمبر ٢٠٠٥ م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة - ابراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٢٩
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

هذا هو الإسلام

(٢)

* السماحة الإسلامية

* حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

د. محمد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

الفهرس

الموضوع الصفحة

* السماحة الإسلامية *

١ ـ السماحة : منهاج ٩
٢ ـ التأسيس القرآنى للسماحة الإسلامية ١١
٣ ـ التطبيق النبوى للسماحة الإسلامية ١٧
٤ ـ وفى الخلافة الراشدة ٢١
٥ ـ وفى التاريخ الإسلامى ٢٧
٦ ـ وشهد شاهد من أهلها ٢٩
الهوامش ٣٦
المصادر والمراجع ٣٨

* حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب *

١ – تمهيد ٤٣
٢ – الحروب الدينية المقدسة ٤٥
٣ – حقيقة الجهاد الإسلامى ٥١
٤ – حقيقة القتال فى الإسلام ٥٩
٥ – حقيقة الإرهاب ٧٥
الهوامش ٨٩
المصادر والمراجع ٩٣

السماحة الإسلامية

- ١ -

السماحة: منهاج

إن السماحة ـ التى تعنى: المساهلة واللين فى المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما انتظار مقابل، أو حاجة إلى جزاء.. إن هذه السماحة ـ فى النسق الإسلامى ـ ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغة نظرية تأملية ومجردة، كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية، يمنحها حاكم ويسلبها آخر.. وإنما هى دين مقدس، ووحى إلهى.. وبيان نبوى لهذا الوحى الإلهى.. وتجسيد وتطبيق لهذا الدين فى دولة النبوة [١ ـ ١١هـ ٦٢٢ ـ ٦٣٢م] وفى دولة الخلافة الراشدة [١١ ـ ٤١هـ ٦٣٢ ـ ٦٦١م].. وفى التاريخ الحضارى للشرق الإسلامى منذ ما قبل أربعة عشر قرنًا، وحتى هذه اللحظات..

بل، لأن هذه السماحة هى ثمرة للدين الخالد والشريعة الخاتمة، فإنها ستظل منهاجًا للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

ـ ٢ ـ

التأسيس القرآنى للسماحة الإسلامية

لقد بدأ القرآن الكريم فأسس للسماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود.

ففى هذا الوجود هناك: «حق» هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ و«خلق»، يشمل جميع عوالم المخلوقات.. هناك: «واجب الوجود»، وهناك «الوجود» المخلوق «الواجب الوجود».. وفى هذا التصور الفلسفى الإسلامى تكون «الواحدية والأحدية» فقط للحق.. لله ـ سبحانه وتعالى.. واجب الوجود... بينما تقوم كل عوالم الخلق ـ المادية.. والنباتية.. والحيوانية.. والإنسانية.. والفكرية ـ أى كل ما عدا الذات الإلهية ومن عدا الذات الإلهية على التعدد، والتنوع، والتمايز، والاختلاف.. باعتبار هذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف قانونًا إلهيًا تكوينيًا، وسنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل. الأمر الذى يستلزم ـ لبقاء هذه السنة الكونية قائمة ومطردة ـ تعايش كل الفرقاء المختلفين، وتعارف جميع عوالم الخلق.. أى سيادة خُلق السماحة فى العلاقات بين الأمم والشعوب، والثقافات، والحضارات، والمذاهب، والفلسفات، والشرائع، والملل، والديانات، والأجناس، والألوان، واللغات، والقوميات.. فبدون السماحة يحل «الصراع» ـ الذى ينهى ويلغى ويفنى التعددية ـ محل التعايش والتعارف.. الأمر الذى يصادم سنة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الاختلاف والتنوع بكل عوالم المخلوقات..

على هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود أقام الإسلام مذهبه فى السماحة، باعتبارها فريضة دينية، وضرورة حياتية، لتكون جميع عوالم الخلق على هذا النحو الذى أراده الله.

وفى التأسيس القرآنى لهذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود، نقرأ فى آيات الذكر الحكيم:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣] . . فالإنسانية تتنوع إلى شعوب وقبائل. . والسماحة هى السبيل إلى تعايشها وتعارفها فى الإطار الإنسانى العام. .

وهذه الأمم والشعوب والقبائل تتنوع أجناسها وألوانها وألسنتها ولغاتها ـ ومن ثم قومياتها ـ كآية من آيات الله ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: ٢٢] . . والسماحة هى السبيل لتعايش الأجناس والقوميات فى إطار الحضارات الجامعة لشعوب هذه القوميات.

وهذه الأمم والشعوب تتنوع دياناتها وتختلف مللها وشرائعها، وتتعدد مناهجها وثقافاتها وحضاراتها، باعتبار ذلك سنة من سنن الابتلاء والاختبار الإلهى لهذه الأمم والشعوب. . وحتى يكون هناك تدافع وتسابق بينها جميعًا على طريق الحق وفى ميادين الخيرات ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ـ والمفسرون لهذه الآيات يقولون عن هذا الاختلاف وذلك التنوع وتلك التعددية فى الشرائع والمناهج والثقافات والحضارات، إنها علة الخلق. . وأن المعنى: «وللاختلاف خلقهم»[١].

وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التى هى علة الوجود، وسر التسابق فى عمران هذا الوجود.

وانطلاقًا من هذا الموقف القرآنى، الذى جعل هذا التنوع سنة إلهية وقانونًا كونيًا، كان «العدل» ـ الذى هو معيار النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية ـ هو أساس السماحة الإسلامية فى التعامل مع كل الفرقاء المختلفين. . ففى التأسيس لهذه السماحة العادلة يطلب القرآن الكريم منا العدل مع النفس والذات. . ذلك ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن

أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾ [النساء: ٩٧]. . ويطلب منا العدل مع الآخر ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾ [الشورى: ١٥]، ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾

[الأنعام: ١٥٢].

بل ويوجب الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا العدل حتى مع من نكره ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ [المائدة: ٨]، ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ [المائدة: ٢].

بل ويوجب القرآن علينا العدل حتى مع من يعتدى علينا ويقاتلنا ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ [البقرة: ١٩٤].

إن الإسلام، لأنه دين ودولة، وأمة وجماعة، ونظام واجتماع، ليس الدين الذى يخلو من القانون ومن السلطة التى تعاقب المعتدين، وتدين الجناة. ومع ذلك، فإن سماحته تدعو إلى العدل فى رد العدوان وإنزال العقاب والجزاء، بل وتفضل الصبر الجميل على رد العقاب ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين (١٢٦) واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون (١٢٧) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾

[النحل: ١٢٥ ـ ١٢٨].

كذلك، يوجب الإسلام علينا العدل فى النظر إلى المخالفين لنا فى الاعتقاد ـ الذى هو سنة إلهية ـ ونحن مدعوون ـ وفق منهاج القرآن ـ ألا نضع كل المخالفين لنا فى سلة واحدة، وألا نسلك طريق التعميم الذى يظلم عندما يغفل الفروق بين مذاهب هؤلاء

المخلصين ومواقفهم وفي مقدمة هذه المناهج أن القرآن الكريم لا يعمم أبداً في حديثه عن أهل الكتاب؛ فأصحاب العقائد والديانات، ولكنه يميز بين الصالحين منهم وغير الصالحين، فيقول: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله﴾ [آل عمران: ١١٣]، ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ [آل عمران: ١٩٩]، ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾

[آل عمران: ٧٥]

فالقاعدة القرآنية الحاكمة في التعبير القرآني عن الفرق المختلفة هي أنهم ﴿ليسوا سواء﴾ [آل عمران: ١١٣] تنطبق تلك القاعدة على الفرق اليهودية، فلم يعمم في الحكم على مجموعهم. وينطبق ذلك نصاً في الحديث عن النصارى، عندما ميز بين من هم أقرب مودة للمسلمين ﴿الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين (٨٣) وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨٤) فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾ [المائدة: ٨٢ـ٨٥]

فقد صدقوا ذلك وهم نصارى؛ فأنصفهم هذا بحفظ الإسلام عليهم، ولم يصفهم في سمة الآخرين من النصارى الذين أشركوا المسيح مع الله في الألوهية والربوبية والخلق، فكفروا بالوحدانية التي جاء بها المسيح ﷺ، عندما قالوا: إن المسيح هو خالق كل الأشياء، وإن كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان، فهو الأول والآخر! ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ [المائدة: ٧٢]

فلم يسوِّ القرآن الكريم بين هؤلاء الفرقاء من النصارى..

والمنطلق الإسلامي لهذا المنظور المؤسس للعدالة والمساواة هو العدل الإلهي الذي هو فريضة إسلامية جامعة، فالله سبحانه وتعالى رب العالمين جميعا ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ٢]، وليس رب طائفة بعينها دون سائر الشعوب، والتكريم الإلهي شامل لكل بني آدم ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ [الإسراء: ٧٠]، ومعيار التفاضل بين الناس هو التقوى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ [النساء: ١٢٣]، وليس معيار التفاضل اللون أو الحسب أو السلالة، والآية صريحة في نقض العصبية التي تستعلي على الآخرين بالحسب [illegible] والحديث، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [التوبة: ١٢٠]، ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٦٢]

وتأسيسا على هذا العدل الإلهي، جاء القرآن الكريم مصححا للإسلام في نظرته إلى جميع الشرائع والرسالات التي سبقت رسالة سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، فالقرآن الكريم لم يأت ناسخا لما سبقه من كتب، وإنما جاء مصدقا لها، ومهيمنا عليها، أي مشتملا على ثوابتها ومستوعبا لأركان العقيدة فيها، ومصدقا لها، ومصححا ما طرأ عليها. فعلى حين كانت اليهودية تنكر النصرانية، وكانت النصرانية تنكر اليهودية ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ [البقرة: ١١٣] جاء القرآن الكريم مصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ﴿وهو الحق مصدقا لما معهم﴾ [البقرة: ٩١]، ومنبها على ما طرأ على بعض [illegible] الكتب [illegible] ما أودعه الله فيها من الهدى والنور ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم (٢) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (٣) من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾ [آل عمران: ٢-٤]، فالتوراة ﴿فيها هدى ونور﴾ [المائدة: ٤٤]، وكذلك

النبيين ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ [المائدة: ٤٦] بل وطلب الإسلام من أهل الكتاب تحكيم كتبهم، ولم يطلب منهم سواها: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ [المائدة: ٤٧]. ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ [المائدة: ٤٣]

ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية على الرؤية المتسامحة للكون والوجود، المحكومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف، كقانون تكويني، الأمر الذي يجعل السماحة ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملاً ومرعيًا في عوالم المخلوقات والمجتمعات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات.

* * *

- ٣ -

التطبيق النبوي للسماحة الإسلامية

ولأن الإسلام هو الخاتمة والوارث لكل ما سبقه، فقد تميز بالسماحة التي جعلته وحده يؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف الأولى، ويأبى التفريق بين أحد من رسل الله، عليهم الصلاة والسلام ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾

[البقرة: ٢٨٥]

ولأن السنة النبوية هي التطبيق النبوي للبلاغ القرآني، وإذا كان [illegible] بكل الرسل والأنبياء [illegible] في عقيدة [illegible] الوحي الذي أوحاه الله إلى خاتم أصحاب الرسالات [illegible] ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا (١٦٣) ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]

وانطلاقا من هذا البلاغ القرآني جاء التطبيق النبوي [illegible] الرسل والأنبياء [illegible] جميعا أبناء دين واحد، وشرائعهم [illegible] أمهاتهم شتى "الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد" رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

ولذلك، خاطب الرسول ﷺ اليهود قائلا: "نحن أحق وأولى بموسى منكم" - رواه البخاري ومسلم - وقال عن عيسى عليه السلام: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة" قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: "الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي" رواه البخاري ومسلم وأبو داود والإمام أحمد.

[illegible] إبراهيم [illegible]

[illegible] قل صدق الله

[illegible] إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين [illegible] [آل عمران: ٩٥] [illegible]

[illegible] ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ [الأنعام: ١٦١]

وفي الحديث [illegible] ﷺ [illegible] الإسلام [illegible] **أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة** [illegible] **"وإني أرسلت بحنيفية سمحة"** [illegible] **"أدخل رجل الجنة بسماحته"** [illegible] **"إن الله يحب سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء"** [illegible]

[illegible]

[illegible] من الديانات [illegible] شريعة الإسلام [illegible] **"لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه"**[2].

وعندما [illegible] سنة ١٠هـ سنة ٦٣١م إلى مدينة رسول الله ﷺ [illegible] بالنصرانية [illegible] وقد جاء في هذا الدستور الذي تفردت به سماحة الإسلام دون كل الأنساق الفكرية والمواثيق الدستورية

«ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الأرض وغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُغيّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي..

ولا يُحملون من النكاح - [الزواج] - شططًا لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضاروا في ذلك إن منعوا خاطبًا وأبوا تزويجًا؛ لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، ومسامحة أهوائهم، إن أحبوه ورضوا به

وإذا صارت النصرانية عند مسلم [زوجة] - فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها في الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك، فمن خالف ذلك وأكرهها على شيء من أمر دينها فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسوله، وهو عند الله من الكاذبين.

ولهم - [أي النصارى] - إن احتاجوا في مرمّة بيعهم وصوامعهم أو شيء من مصالح أمورهم ودينهم إلى رفد - [مساعدة] - من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يُرفدوا على ذلك ويُعاوَنوا، ولا يكون ذلك دينًا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله، وموهبة لهم، ومنّة لله ورسوله عليهم

. لأني أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، بالعهد الذي استوجبوا حق الذمام، والذب عن الحرمة، واستوجبوا أن يُذبّ عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم.

واشترط عليهم أمورًا يجب عليهم في دينهم التمسك بها والوفاء بما عاهدهم عليه، منها ألا يكون أحد منهم عينًا ولا رقيبًا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سره وعلانيته، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا في شيء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا - [يساعدوا] - أحدًا من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم

وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يؤووهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئاً من الواجب عليهم.»

وعندما ذهب الصحابي حاطب بن أبي بلتعة [٣٥ق هـ - ٣٠هـ = ٥٨٦ - ٦٥٠م] حاملاً رسالة رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط [سنة ٧هـ سنة ٦٢٨م]، تجلت هذه السماحة الإسلامية في خطاب حاطب إلى عظيم القبط المقوقس، عندما قال له:

إن لك ديناً - [أي النصرانية] - لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به.»

* * *

ـ ٤ ـ

وفي الخلافة الراشدة

ولقد امتدت هذه السماحة بامتداد الفتوحات الإسلامية، حتى [illegible] «الدولة» [illegible] خارج [illegible] «المدينة» فالخليفة أبو بكر الصديق [٥١ ق هـ - ١٣ هـ ٥٧٣ - ٦٣٤م] يوصي أمير الجيش الذاهب إلى الشام يزيد بن أبي سفيان [١٨ هـ ٦٣٩م] «إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له» - رواه مالك في الموطأ.

وفي عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤م] كتب عمر ذلك «العهد العمري» لأهل القدس - «إيلياء» عند فتحها سنة ١٥ هـ سنة ٦٣٥م الذي قرر فيه: «الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود - [وفق ما طلبوا] وعلى أهل إيلياء أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن.. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم.. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين..»(٦).

بل لقد امتدت هذه السماحة الإسلامية من إطار التعامل مع أهل الديانات السماوية - اليهود والنصارى - إلى غيرهم من أهل الديانات [illegible]، فشملت [illegible] الديانات الوضعية من أهل البلاد التي دخلت في الدولة الإسلامية.. فعندما فتحت فارس، وأهلها مجوس [illegible] عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤

٦٤٤م] مجلس شورى [illegible] في موقف من أهل هذه الديانة غير سماوية

ـ كيف أصنع بالمجوس؟

فوثب عبد الرحمن بن عوف [٤٤ ق هـ ـ ٣٢هـ / ٥٨٠ ـ ٦٥٢م] فقال

ـ أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «سنوا فيهم سنة أهل الكتاب»

* * *

ـ والإسلام [illegible] لا [illegible] سوى الحوار [illegible] في [illegible] بالتي هي أحسن ـ و[illegible] ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل: ١٢٥]، [illegible] ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿أو أثارة من علم﴾ [الأحقاف: ٤]

والإسلام [illegible] حتى [illegible] حتى [illegible] الإسلام حتى [illegible] شركًا ـ الوثنية ـ [illegible] مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين﴾ [الكافرون: ٤ ـ ٦]

وعندما أصبحت للإسلام دولة ومجتمع ومؤسسات [illegible] تعايش مع المنافقين في المدينة ـ وهم أخطر من الكفار المعلنين ـ وفي هذه الحقيقة يقول الإمام محمد بن جرير الطبري [٢٢٤ ـ ٣١٠هـ / ٨٣٩ ـ ٩٢٣م] «لقد جمع الله الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحد لكان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم الإسلام بما أظهروا، ووكل سرائرهم إلى الله وقد كذّب الله ظاهرهم في قوله ﴿والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ [المنافقون: ١]» (٨)

وحتى عندما [illegible]

بعض صحابته علمه بهم، كان رسول الله ﷺ يرفض إقامة العقاب الدنيوي عليهم، ويقول: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه» - كما حكى ذلك ابن القيم [٦٩١ - ٧٥١هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م] - «فإن نفاق عبد الله بن أبي [٩هـ ٦٣٠م]، وأقواله في النفاق كانت كثيرة جدًا، كالمتواترة عند النبي ﷺ وأصحابه، وبعضهم - [أي بعض المنافقين] - أقر بلسانه، وقال: «إنما كنا نخوض ونلعب»، وقد قيل للنبي ﷺ: ألا تقتلهم؟ قال: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»».

ولم يقم رسول الله ﷺ حدًا ولا عقوبة دنيوية على الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا، ثم كفروا [illegible] ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦]. لأن الإكراه يثمر نفاقًا، ولا يثمر إيمانًا، إذ الإيمان تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل. وما الردة والزندقة والإلحاد إلا أمراض [illegible] علاج [illegible] مع [illegible] علاج الأمراض العضوية هو من اختصاص الأطباء، لا المؤسسات العقابية للدولة. [illegible] ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ [المائدة: ٥٤].

ولم يحكم رسول الله ﷺ [illegible] على [illegible] لا في [illegible] التي لم [illegible] ردة [illegible] المسلح على الأمة والدولة. فالنفر الذين [illegible] الإسلام، [illegible] الإسلام [illegible] فأولئك [illegible] ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم

من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٣٣) إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ [المائدة: ٣٣ـ ٣٤]

ولهذه الحكمة، جاء تصنيف «باب الردة» في الفقه الإسلامي ـ ضمن «كتاب الحدود». وقرر كثير من الفقهاء ـ وعلى رأسهم علي بن أبي طالب [٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١م]، وابن عباس [٣ق هـ ـ ٦٨هـ ٦١٩ ـ ٦٨٧م]، والحسن البصري [٢١ ـ ١١٠هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م]، وسفيان الثوري [٩٧ ـ ١٦١هـ ٧١٦ ـ ٧٧٨م]، وأبو حنيفة [٨٠ ـ ١٥٠ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م]، وأصحابه، وعطاء [٢٧ ـ ١١٤ هـ ٦٤١ ـ ٧٣٢م]، وابن شبرمة [١٤٤هـ ٧٦١م]، وابن عُلية [١١٠ـ ١٩٣هـ ٧٢٨ ـ ٨٠٩م] قالوا: إن المرأة المرتدة لا تقدم عليها حد، لأنها غير محاربة [illegible] في ردتها(١)

فالردة، إذا كانت مجرد حالة فكرية [illegible] في حرية الاعتقاد [illegible] الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م]: «فإن الرجوع عن الإيمان إلى الكفر يشبه الآفة تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة، فإن لم يمت المصاب بعقله وقلبه، فهو في حكم الميت، لا ينتفع بشيء، وكذلك الذي يقع في ظلمات الكفر بعد أن هدي إلى نور الإيمان، تفسد روحه، ويظلم قلبه، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية، ولا يعطى شيئًا من أحكام المسلمين الظاهرة، فيخسر الدنيا والآخرة»(١)

[illegible] المحاورة، وإقامة الحجة، وإزالة الشبهات.

وكما يقول صاحب [فقه السنة]: «فإن الردة كثيرًا ما تكون نتيجة الشكوك والشبهات التي تساور النفس وتزاحم الإيمان، ولا بد أن تتهيأ فرصة للتخلص من هذه الشبهات والشكوك، وأن تقدم الأدلة والبراهين التي تعيد الإيمان إلى القلب، واليقين إلى النفس، وتزيح ما علق بالوجدان من ريب وشكوك، ومن ثم كان من الواجب أن يستتاب المرتد ولو تكررت ردته، ويمهل فترة زمنية يراجع فيها نفسه، وتفند فيها وساوسه، وتناقش فيها أفكاره»

وقد كان بعض العلماء قد حددوا مدة الاستتابة [illegible] فلقد نقل ابن بطال [illegible] [٤٠٠هـ ١٠١٣م] عن الإمام عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أن المرتد يستتاب شهراً. وعن النخعي [٤٦ - ٩٦هـ ٦٦٦ - ٧١٥م] أنه يستتاب أبداً» فالمرض [illegible] والعلاج [illegible] المرض، لا [illegible]

[illegible] الإسلام، في حرية الاعتقاد، [illegible] الإمام مالك [illegible] [٩٣ - ١٧٩هـ ٧١٢ - ٧٩٥م]: «إن من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً، ويحتمل الإيمان من وجه، حُمل أمره على الإيمان»

* * *

أما إذا كانت الردة مصحوبة [illegible]

الإيمان [illegible]

وهدم [illegible]

الإسلامية الحقيقية ومنع نشر الجراثيم التي تفتك به، كما يجب عليها منع نشر جراثيم الأمراض العضوية [illegible]

[illegible] الفكرية والعضوية [illegible] العلاج [illegible] هذه الجراثيم [illegible] «فلقد قال قائل من أهل السنة: إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالباً غير واقف عند شيء، فهو ناج. فأي سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة؟!»[2]

وهذا الذي قاله [illegible] على قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ [التوبة: ٦].

والإسلام لا يطلب سوى الحرية، التي تمكن أهله من تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة، وإزالة الشبهات [illegible] ولو أن المشركين في مكة وجزيرة العرب - تركوا للإسلام هذه الحرية لما نشبت معركة، ولا حدثت غزوة، ولا سالت قطرة من دماء

ذلك أن الإسلام وحده هو الذي نظر نظرة متميزة إلى القتال، وذلك عندما رآه لا مستحبًا ولا مكروهًا، وإنما هو ضرورة حتمية [illegible] يكثر من [illegible] ﴿كُتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [البقرة: ٢١٦]. [illegible] على هذه الفلسفة القرآنية المتميزة، وشرحها الحديث النبوي الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله». رواه الدارمي.

* * *

ولأن هذا هو موقف الشريعة الإسلامية من الحرب في الأصل، فقد جاء حديث القرآن الكريم عن الإذن بالقتال [illegible] في سياق الحديث عن صد العدوان [illegible] فتنوهم في دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم [illegible] لا لشيء إلا لاعتناقهم الإسلام: ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

فحرية العقيدة والضمير، وحرية الوطن الإسلامي [illegible] و«السلم» و«الحرب» بين المسلمين [illegible] وفي [illegible] حددتها آيات القرآن الكريم: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم (٧) لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [الممتحنة: ٧-٩].

* * *

- ٥ -

وفى التاريخ الإسلامى

وإذا كان المسلمون قد نجحوا فى ثمانين عامًا، بسرعة فى فتح ما فتحه الرومان فى مساحة قرون ـ فإن كل معارك الفتوحات الإسلامية قد وقفت عند تحرير الشرق من قهر قوى الاستعمار ـ وخاصة الروم ـ الذين استعمروا الشرق وقهروه.. ومن قبلهم الإغريق ـ عشرة قرون ـ من الإسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق م] فى القرن الرابع قبل الميلاد.. وحتى هرقل [٦١٠ ـ ٦٤١م] ـ فى القرن السابع بعد الميلاد.

ووقفت كل معارك الفتوحات الإسلامية، عند تحرير الشرق من هذا القهر السياسى والدينى والثقافى والحضارى، ولم تحدث معركة واحدة بين الجيوش الإسلامية وبين أهل البلاد المشرقية، حتى شهدت معارك تلك الفتوحات أن حارب أهل تلك البلاد وساعدوا جيوش الفتوحات الإسلامية ضد الفرس والروم، وهم على ديانتهم القديمة.. حدث ذلك بمصر، والشام، والعراق.

وبعد أن تم تحرير هذه البلاد، تركت الدولة الإسلامية شعوب تلك البلاد وما يدينون، حتى إن الذين دخلوا فى الإسلام ـ من أهل مصر والشام وفارس ـ بعد قرن من الفتح لم يزيدوا على ٢٠٪ من السكان!.. [٣] فكانت الدولة الإسلامية حارسة للأرض المحررة من الروم المتربصين ـ الذين ظلوا يجيشون الجيوش لإعادة اختطاف الشرق حتى فتح القسطنطينية [٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م]. كما كانت هذه الدولة الإسلامية حارسة حرية الضمير والاعتقاد لدى من بقى على غيره ـ طوال عشرة قرون!

ولقد شهد بهذه الحقيقة ـ حقيقة سماحة الإسلام مع ديانات شعوب البلاد التى دخلت فى دولة الإسلام ـ التاريخ والمؤرخون.. وغير المسلمين منهم قبل المسلمين

فهذا الفتح الإسلامي هو الذي [illegible] المسيحية [illegible] من [illegible] حتى يمكن القول [illegible] المسيحية الشرقية حتى الآن [illegible] الإسلام وسماحة الإسلام.

فعمرو بن العاص [٥٠ق هـ ٤٣هـ ٥٧٤ ٦٦٤م] هو الذي [illegible] مصر [illegible] [٣٩ ٦٥٩م] على [illegible] ثلاثة عشر [illegible] وهو الذي [illegible] في مصر [illegible] مساجد، [illegible] لأصحابها [illegible] في تاريخ [illegible] مصرية! [illegible] عمرو بن العاص [illegible] الإسلام. لأول مرة في تاريخ مصر [illegible] أن كان الرومان يقدمونهم طعامًا للنيران والأسود!!.

* * *

ـ ٦ ـ

وشهد شاهد من أهلها

وقد كانت هذه الصورة المشرقة من الإدارة الإسلامية هي الشاهد العدل الأصدق على حقيقة السماحة الإسلامية.. فإن المؤرخين المصريين من شهود عصر الفتح، والمحدثين قد شهدوا لهم بطبيعة هذه السماحة الإسلامية.

ففي أقدم كتب التاريخ المصرية حديث عن سماحة عمرو بن العاص مع نصارى مصر، وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان، وهزيمة الاستعمار البيزنطي بمصر على يد الجيش الإسلامي الفاتح إنما كان انتقامًا إلهيًا من ظلم الرومان لمصر واضطهادهم لنصارى مصر.. ففي تاريخ «يوحنا النقيوسي» وهو معاصر للفتح وشاهد عليه:

«إن الله، الذي يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين - [العرب المسلمين] ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر.. وكان هرقل حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم.. مرض هرقل ومات.. وكان عمرو - [بن العاص] - يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها - [الكنائس] - طوال الأيام..»(١٤)

إنها شهادة شاهد عيان مصري على هذه السماحة الإسلامية، التي تجسدت على أرض الواقع، ومتى؟.. قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان!.. وهي سماحة نابعة من الدين الإسلامي.. وليست كحقوق المواطنة، التي لم تعرفها المجتمعات الغربية إلا على أنقاض الدين!!

وبعد أن [illegible] عمرو بن العاص [illegible] "[illegible]"، وأمّنه على نفسه وكنائسه ورعيته، وحرية عقيدته [illegible] ووضع أمنه [illegible] "[illegible]" في [illegible] كنيسته، وفي عدة مناسبات، وكان الناس يستقبلونه فرحين [illegible] التي تشهد على أن الفتح الإسلامي إنما هو عقاب إلهي للرومان جزاء ظلمهم الذي أوقعوه بالنصارى المصريين.

وعن هذه الحقيقة من حقائق سماحة الفتح الإسلامي للشعوب الشرقية، يتحدث الأسقف "يوحنا النقيوسي" في تأريخه للفتح الإسلامي لمصر [illegible] شاهد عيان:

«ودخل الأنبا "بنيامين" بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الروم في العام ١٣ ـ [أي العام الثالث عشر من تاريخ هروبه] ـ وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون: هذا النفي، وانتصار الإسلام، كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد الأنبا "كيرس" ـ [البطريرك المعين من قبل الدولة الرومانية في مصر] ـ وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر..»

ويعبر الأنبا "بنيامين" عن الأمان الذي حققته سماحة الإسلام لمصر، على نقيض المرارة والاضطهاد الذي مارسه الرومان ضد نصارى مصر، فقال وهو يخطب في دير "المقاريوس":

«لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون»

أما المؤرخ المسيحي المعاصر "ميخائيل السرياني"، فإنه يقول عن تحرير الفتح الإسلامي لمصر من المظالم الرومانية، وعن سماحة الإسلام مع نصارى مصر:

«لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا المونوفيزيتية ـ [القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح] ـ بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه.

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام» (١٧)

[illegible] شهود عيان [illegible]
الإسلامية كانت [illegible] لشعوب [illegible] الإسلام [illegible]
سماحة الإسلام كانت آية من آيات الله، تقدم [illegible] من مظالم الرومان!.. حتى لقد اعتبروا مرض هرقل وموته - وزوال الإمبراطورية [illegible] - وسيادة الإسلام في مصر والشرق آية من آيات الله!

والمستشرق الإنجليزي [illegible] سير توماس أرنولد [١٨٦٤ - ١٩٣٠م] وهو من أرَّخ لانتشار الإسلام، في كتابه [الدعوة إلى الإسلام] - فإنه يؤكد على حقيقة السماحة الإسلامية، فيقول:

«إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة. وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين، كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح.»(٨).

ولقد حدث [illegible] الأديرة [illegible] من الاضطهاد [illegible] عمرو بن العاص، حتى «ليروى أنه خرج لتلقيه من أديرة وادي النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه، وأنه كتب لهم كتابًا - [بالأمان] - هو عندهم»(٩).

وفي شهادة [illegible] تؤكد على سماحة الإسلام مع نصارى مصر - في شئون [illegible] «يعقوب نخلة» [١٨٤٧ - ١٩٠٥م] - صاحب كتاب [تاريخ الأمة القبطية] -

«ولما ثبت قدم العرب في مصر، شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهالي واستمالة قلوبهم إليه، واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم.

وأول شيء فعله من هذا القبيل استدعاء «بنيامين» البطريرك، الذي اختفى من أيام هرقل ملك الروم، فكتب أمانًا وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك

للحصون، ولا خوف عليه ولا تثريب، ولما حضر، وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع، أكرمه، وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته، وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل، ورد «بنيامين» إلى مركزه الأصلي معززاً مكرماً وكان «بنيامين» موصوفاً بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم) وقيل إن عمرو لما تحقق ذلك منه، قربه إليه، وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منّة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو.

واستعان عمرو في تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلاً منها حاكم قبطي ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية، واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة، وعين نواباً من القبط ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، وكانوا بذلك في نوع من الحرية والاستقلال المدني، وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية

وضرب [عمرو بن العاص] الخراج على البلاد بطريقة عادلة وجعله على أقساط، في آجال معينة، حتى لا يتضايق أهل البلاد.

وبالجملة، فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان..»(٢٠)

هكذا تقول هذه الشهادة القبطية التي نشرتها، في صفحتين اثنتين، الموسوعة المرقسية [illegible] أن الفتح الإسلامي والسماحة الإسلامية قد حررت الأرض والعقائد والإنسان، فأصبحت حكومة مصر مصرية في مصر، لأول مرة في تاريخ الحضارة المصرية، كما حققت السماحة الإسلامية العدل في الاقتصاد والاجتماع، وجعلت حاكمية شرائع القبط الدينية والأهلية فيما هو خاص بأحوالهم الدينية.. التي تركوا فيها وما يدينون

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية فقد [illegible] [illegible] عند دعوة الروم إلى احتلال الإسكندرية سنة ٢٥ هـ سنة ٦٤٦م في عهد [illegible]

عهد عثمان بن عفان [٤٧ق هـ ـ ٣٥هـ ٥٧٧ ـ ٦٥٦م] هو الذي قاتل مع جيش المسلمين ضد الروم ـ المصريون ـ وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص، لقيادة المعركة.. فعاد إلى مصر، واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدي الروم.. [illegible] صاحب كتاب [تاريخ الأمة القبطية].

«فإن المقوقس والقبط تمسكوا بعهدهم مع المسلمين، ودافعوا عن المدينة ـ [الإسكندرية] ـ ما استطاعوا.. واجتمعت كلمة القبط والعرب على أن يطلبوا من الخليفة أن يأذن لعمرو بن العاص في العودة إلى مصر لمقاتلة الروم، لتدربه على الحرب، وهيبته في عين العدو، فأجاب الخليفة طلبهم.. وكان القبط يحاربون مع العرب ويقاتلون الروم خوفًا من أن يتمكنوا من البلاد ويأخذونها فيقع الأقباط في يدهم مرة أخرى..»(٢١).

وفى شهادة لمؤرخ مصرى معاصر ـ هو الدكتور «جاك تاجر» [١٣٣٦ ـ ١٣٧١هـ ١٩١٨ ـ ١٩٥٢م]، يقول:

«إن الأقباط قد استقبلوا العرب كمحررين، بعد أن ضمن لهم العرب عند دخولهم مصر، الحرية الدينية، وخففوا عنهم الضرائب.. ولقد ساعدت الشريعة الإسلامية الأقباط على دخولهم الإسلام وإدماجهم فى المجموعة الإسلامية، بفضل إعفائهم من الضرائب.. أما الذين ظلوا مخلصين للمسيحية، فقد يسر لهم العرب سبل كسب العيش.. إذ وكلوا لهم أمر الإشراف على دخل الدولة..»(٢٢)

وهذه السماحة الإسلامية، التى تحدثت عنها هذه الشهادات المصرية القبطية، والتى أكدت وتؤكد أن هذه السماحة لم تقف فقط عند «الدين»، وإنما امتدت لتشمل «جهاز الدولة» [illegible] قد شهد بحقيقتها المستشرق الألمانى «آدم متز» [١٨٦٩ ـ ١٩١٧م] عندما قال:

«لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»(٢٣).

* * *

وحتى فترات «التوتر الدينى والطائفى» التى شهدها التاريخ الإسلامى، بين المسلمين وغير المسلمين.. والتى كان متعصبو [illegible] التاريخ الطويل أن يحملوا منها [illegible]

سماحة الإسلام قد صحبت [illegible] أحداث [illegible] وتوتر [illegible] [illegible] وهو مزاج الحكام على [illegible] [illegible] الشخصي [illegible] [illegible] مزاج [illegible] في ثلاثة أسباب

١ ـ [illegible] الشخصي [illegible] الحكام [illegible] [illegible]

٢ ـ التعاظم والاستعلاء الذي مارسته الجماعات النصرانية واليهودية، التي [illegible] على جمهور [illegible] [illegible]، فاستفزت الجماهير [illegible] الفقراء [illegible] الأمر الذي ولد ردود أفعال لم تقف عند الذين [illegible] منهم خاصة.

٣ ـ استعانة قطاعات من أبناء الأقليات بالغزوات الغربية للعرب [illegible] الأمر الذي ولد ردود أفعال عنيفة عقب الغزوات الغربية، طالت قطاعات من [illegible] الأقليات.

لقد حصر «جورج قرم» التوتر الطائفي، الذي مر بتاريخ السماحة الإسلامية، في هذه الأسباب الثلاثة، [illegible]

إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل:

العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصي، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل العباسي [٢٠٦ـ٢٤٧هـ ٨٢١ـ٨٦١م] الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة، وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله [٣٧٥ـ٤١١هـ ٩٨٥ـ١٠٢١م] الذي غالى في التصرف معهم بشدة.

العامل الثاني: هو تردي الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذي يمارسه بعض الذميين المعتلين مناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار.

أما العامل الثالث، فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية، وقيام الحكم الأجنبي بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد

الأغلبية المسلمة. إن الحكام الأجانب -ومن بينهم الإنجليز- لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب - وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضًا، حيث أظهرت أبحاث «جب» [١٨٩٥ - ١٩٧١م] و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق سنة ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان سنة ١٨٤٠م وسنة ١٨٦٠م. ونهايات الحملات الصليبية قد أعقبها، في أماكن عديدة، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولا سيما الأرمن - التي تعاونت مع الغزاة

بل إنه كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من [illegible] السبب في نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على عون الموظفين [illegible] وفي مراعاتهم وتحيزهم، إلى حد الصفاقة أحيانًا لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة.» [٢١]

* * *

تلك هي السماحة الإسلامية

كما تجلت في القرآن الكريم..

وفي البيان النبوي للبلاغ القرآني،

وكما تجسدت في المواثيق الدستورية [illegible] وفي خطة التطبيق والواقع المعاش للدولة الإسلامية - في عهد النبوة [illegible] والخلافة الراشدة [illegible] وعبر تاريخ الإسلام وحضارته الإسلامية

وكما شهدت بها مصادر من كتبها مؤرخون ثقات، من مصريين وشرقيين وغربيين [illegible] ثقات منهم ومحدثين ومتخصصين [illegible] والذين لا مطعن على شهادتهم وحيدتهم، دون شهادة مؤرخين مسلمين [illegible] «وشهد شاهد من أهلها» على هذه السماحة الإسلامية، التي تفرد بها الإسلام [illegible] والتي لا نظير لها خارج إطار الإسلام؟

* * *

الهوامش:

(١) القرطبي [الجامع لأحكام القرآن] ج٩ ص ١٠، ١١٥ طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

(٢) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ٧ - ٢١ جمعها وحققها د. محمد حميد الله الحيدر آبادي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م

(٣) ابن القيم [زاد المعاد في هدي خير العباد] ج٣ ص ٥٤٩، ٥٥٠ تحقيق شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط طبعة بيروت سنة ١٤١٨هـ سنة ١٩٩٧م ومحمد بن يوسف الصالحي الشامي [سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد] ج٦ ص ٦٤٢ تحقيق: إبراهيم الترزي، عبد الكريم العزباوي - طبعة القاهرة سنة ١٤١٨هـ سنة ١٩٩٧م

(٤) [مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ١١٢، ١٢٣ - ١٢٧

(٥) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦ طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م

(٦) [مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ٣٤٥، ٣٤٦

(٧) البلاذري [فتوح البلدان] ص ٣٢٧ تحقيق د. صلاح الدين المنجد طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

(٨) [الجامع لأحكام القرآن] ج١ ص ٢٠٠.

(٩) المصدر السابق: ج٣ ص ٤٨

(١٠) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج٤ ص ٥٥٨ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(١١) سيد سابق [فقه السنة] ج٢ ص ٣٨٤، ٣٨٧ - ٣٨٩ طبعة مكتبة المسلم بالقاهرة بدون تاريخ.

(١٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٨٢.

(١٣) فيليب فارج، يوسف كورباج [المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي] ص ٢٥ ترجمة بشير السباعي. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م

(١٤) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي. رؤية قبطية للفتح الإسلامي] ص ٢٠، ٢٢٠ ترجمة ودراسة. د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م

(١٥) المصدر السابق، ص ٢٢٠

(١٦) المصدر السابق، ص ٢٢٠

(١٧) د. صبري أبو الخير سليم [تاريخ مصر في العصر البيزنطي] ص ٦٢. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م

(١٨) سير توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٢٩، ١٣٠ ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م

(١٩) [تاريخ مصر في العصر البيزنطي] ص ١٩٤

(٢٠) يعقوب نخلة [تاريخ الأمة القبطية] ص ٥٤ ـ ٥٧ تقديم د. جودت جبرة. طبعة مؤسسة مارمرقس لدراسة التاريخ ـ القاهرة سنة ٢٠٠٠م

(٢١) المصدر السابق، ص ٥٨، ٥٩

(٢٢) د. جاك تاجر [أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م] ص ٣٠٩، ٣ ٥ طبعة الهيئات القبطية بالمهجر ـ مدينة جرسي ـ أمريكا سنة ١٩٨٤م

(٢٣) آدم متز [الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري] جـ ١ ص ١٠٥ ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م

(٢٤) جورج قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة] ص ٢٢٣، ٢٢٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م ونقلا عن د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراق] ص ٧٢٩، ٧٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

* * *

المصادر والمراجع

- آدم متز: [الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري] ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م

- ابن عبد الحكم: [فتوح مصر وأخبارها] طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م

- ابن القيم: [زاد المعاد في هدي خير العباد] تحقيق شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، طبعة بيروت سنة ١٤١٨هـ - سنة ١٩٩٧م

- أرنولد (سير توماس): [الدعوة إلى الإسلام] ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ود. عبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م

- البلاذري: [فتوح البلدان] تحقيق د. صلاح الدين المنجد، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م

- د. جاك تاجر: [أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م] طبعة مصورة - الهيئات القبطية بالمهجر - نيوجرسي - أمريكا سنة ١٩٨٤م

- د. جورج قرم: [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوجية مقارنة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م

- د. سعد الدين إبراهيم: [الملل والنحل والأعراق] طبعة القاهرة سنة [illegible]م

- سيد سابق: [فقه السنة] طبعة مكتبة التراث - القاهرة - بدون تاريخ

- د. صبري أبو الخير سليم: [تاريخ مصر في العصر البيزنطي] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م

- فيليب فارج، يوسف كرباج: [المسيحيون واليهود في التاريخ العربي والتركي] ترجمة بشير السباعي، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م

- القرطبي: [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
- د. محمد حميد الله الحيدر آبادي: [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
- محمد عبده (الأستاذ الإمام): [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م
- محمد بن يوسف الصالحي الشامي: [سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد] تحقيق [illegible] عبد الكريم العزباوي، طبعة القاهرة سنة ١٤١٨هـ سنة ١٩٩٧م
- يعقوب نخلة روفيلة: [تاريخ الأمة القبطية] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م
- يوحنا النقيوسي: [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، رؤية قبطية للفتح الإسلامي] ترجمة ودراسة د. عمر صابر عبد الجليل، طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م

* * *

حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

ـ ١ ـ

تمهيد

هناك خلط كبير وشديد بين مضامين هذه المصطلحات الثلاثة: **الجهاد.. والقتال.. والإرهاب**. وهذا الخلط هو أشد ما يكون في هذه الحرب السياسية والفكرية والدينية والإعلامية الكبرى التي تشنها دوائر غربية متعددة ضد الإسلام وأمته وحضارته وعالمه.. ليس فقط منذ «قارعة» «سبتمبر سنة ٢٠٠١م» التي وقعت بأمريكا.. وإنما قبل هذه «القارعة» بعقود.. وربما قرون.. لكن هذه «القارعة» قد تصاعدت بهذه الحملة.. ومن ثم بهذا الخلط بين مفاهيم هذه المصطلحات تصاعدًا غير مسبوق في تاريخ علاقات الغرب بالشرق، والغربيين بالشرقيين.

ولأن غبش الرؤية في مضمون مصطلح الجهاد الإسلامي، والخلط بينه وبين القتال والعنف الإرهابي.. حتى بلغ الأمراء والأميين.. فلا أدل على ذلك من حذف قمة منظمة المؤتمر الإسلامي مصطلح الجهاد من بيانها الختامي في «داكار» بالسنغال ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.. وذلك محاولة «لإخلاء ساحتها من تبعة هذا الخلط لمصطلح الجهاد».

ولأن النظر إلى **«الآخر»** من خلال **«الذات»** هو سبب شائع في [illegible] المعارك بين الديانات والثقافات والحضارات؛ لأنه يؤدي إلى صب «الآخر» في قوالب «الذات» وتجاهل ـ ومن ثم إلغاء ـ الفروق بين الديانات والثقافات والحضارات، وذلك لأن الأمر يستلزم التمييز بين **«الأشباه والنظائر»** التي تجمع النماذج الثقافية في موضوع المعرفة، وبين **«الفروق»** التي تميز بينها.. ذلك أن هذا المنهج الأحادي الجانب هو السبب في كثير من الخلط الذي يصيب مضامين هذه المصطلحات.

صحيح أنه لا مشاحة في استخدام المصطلحات من قبل أهل الخصوصيات المختلفة والديانات المتعددة، والثقافات المتمايزة، لكن هناك مشاحة كبيرة في مضامين وأنساقهم والمحمولات التي تحملها لدى كل فريق من فرقاء هذه المصطلحات.. فالمصطلحات أشبه بالأوعية، يستخدمها ويتداولها الجميع، لكن مضامين هذه الأوعية - مضامين المصطلحات - تتفاوت وتتغاير وتتمايز، بل وقد تتناقض لدى أصحاب الأنساق الفكرية المختلفة، رغم وحدة المصطلحات

فقد استخدمت الدنيا عبر تاريخها ولا تزال تستخدم مصطلح "السياسة" لكن هناك ثقافات وحضارات قد جعلت "القوة" و"الغلبة" هي مضمون وغاية [illegible] من وراء فلسفة سياسية [illegible] بينما رأت الثقافة الإسلامية هذه السياسة بمعايير الصلاح والقيم والأخلاق، فعرفتها بأنها «التدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد»[1].

واستخدمت الدنيا عبر تاريخها ولا تزال تستخدم مصطلح «الدين» لكن هناك الفلسفات الوضعية التي رأت في الدين إفرازًا للعقل البشري، ورأت في "التوحيد الديني" مرحلة متطورة من مراحل هذا الإفراز والإبداع البشري! بينما رأته الفلسفات الإلهية ولا تزال - وحيًا سماويًا، ووضعًا إلهيًا سائقًا لذوي العقول السليمة، لهداية الناس في المعاش والمعاد.

واستخدمت الدنيا منذ قرون طويلة ولا تزال تستخدم مصطلح "الإقطاع" لكن هناك ثقافات وحضارات ومذاهب اجتماعية ترى فيه تمليك الإنسان للأرض ومن عليها ومن فيها.. بينما رأته الثقافة الإسلامية وتراثها وتاريخها حقًا في مجرد تمليك المنفعة، لإحياء الأرض الموات؛ لأن مالك الرقبة - المالك الحقيقي - للأرض وجميع الثروات هو الله سبحانه وتعالى، وما الناس - الخلق - إلا مستخلفون ونواب ووكلاء في هذه الأرض وما فيها وما عليها من الأموال والثروات[2].

وكذلك الحال مع مصطلحات "الجهاد" و"القتال" و"الإرهاب" [illegible] حيث هناك خلط كبير وشديد بين مفاهيمها ومضامينها ومحمولاتها على النحو الذي نشكو منه هذه الأيام

- ٢ -

الحرب الدينية المقدسة

باستثناء قطاع محدود من علماء الغربيين، الذين درسوا الإسلام وحضارته وتاريخه وفق موضوعية الدراسات المقارنة، والذين تحررت عقولهم من قيود المقاصد «الإمبريالية» الغربية، فإن الكثيرين من الذين قاموا بدراسة حضارة الإسلام وتاريخ المسلمين - سواء بسوء نيتهم أو بحسن نيته - قد وقعوا في خطأ النظر إلى الأحداث الإسلامية من خلال منظار «المعايير» التي حكمت مسيرة الحضارة الغربية، والكهانة الكنسية المصبوغة بالغربية، والتاريخ الحضاري الغربي وما شهده من صراعات.

* وقد ذكروا الخلافة الإسلامية - وهي دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية - فرأى بعضهم كهانة دينية كالكنيسة الأوروبية التي حكمت بالحق الإلهي والتفويض السماوي.

* وقد ذكروا التقدم في مرحلة، فما تصوروه إلا قائمًا على تقليص نطاق الشريعة، وفي ظلال العلمانية واللادينية.

* وقد ذكروا الدين، فما تصوروه إلا علاقة فردية بين الإنسان وخالقه، تقف عند خلاص الروح ومملكة السماء، لا علاقة لها بهذا العالم، لأنها تدع ما لقيصر لقيصر، مكتفية بما لله.

وانطلاقًا من النظر إلى «الآخر الإسلامي» من خلال منظار «المعايير الغربية» حسب هؤلاء الغربيون - ومعهم مثقفون متغربون - الجهاد الإسلامي «حربًا دينية مقدسة» ضد أصحاب الديانات الأخرى، يكون معيارها وعلتها والباعث عليها هي الاختلاف في المعتقدات

ولقد كانت الحروب الصليبية، التي شنها الغرب النصراني على الشرق الإسلامي، والتي دامت قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠هـ، ١٠٩٦ - ١٢٩١م)، والتي عبأتها الكنيسة الكاثوليكية الغربية الحلقة الأخطر في مخطط مقاصدها "الإمبريالية" [illegible] كانت هذه الحروب الدينية المقدسة هي النموذج الذي قاس عليه هؤلاء الغربيون والمتغربون الجهاد الإسلامي، فكان خلط الأوراق وخلطهم الذي نشكو منه حتى هذه اللحظات.

لقد شنت الكنيسة الأوروبية حربها الدينية المقدسة [illegible] وأمته وعالمه، باعتبارها حربٌ ضد "الكفار" لتخليص "قبر" المسيح [illegible] أيدي هؤلاء الكفار، معلنة أن هذه الحرب المقدسة هي حرب [illegible] في [illegible] الله، وأن فرسانها قد يحصلون "مفاتيح الجنة" مع أدوات القتل والقتال!

وعلى هذه الصبغة الدينية لهذه الحرب التي غلفت مقاصدها الإمبريالية جاء في خطاب البابا "أوربان الثاني" (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) الذي دعا فيه فرسان الإقطاع الأوروبي إلى هذه الحرب المقدسة:

"يا من كنتم لصوصًا كونوا اليوم جنودًا. لقد آن الزمان الذي فيه تحوِّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي إلى الآن تستخدمونها بعضكم ضد البعض. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن [illegible] هي [illegible] هي حق الله عينه [illegible] وليست هي لاكتساب مدينة واحدة [illegible] بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى..

فاتخذوا طريق القدس، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين، وامتلكوها أنتم، فإن هذه الأرض كما تقول التوراة تفيض لبنًا وعسلاً [illegible] ومدينة أورشليم هي قلب الأرض المذكورة، والأمكنة المحيطة تشبه فردوس سماوي

اذهبوا وحاربوا البرابرة (يقصد المسلمين!) لتخليص الأراضي المقدسة من استيلائهم [illegible] امضوا متسلحين بسيف مفاتيحي الطرسية - أي مفاتيح الجنة التي صنعها لهم البابا! - واكتسبوا لأنفسكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية، فإذا بقيتم منتصرين على أعدائكم، فممالك الشرق تكون لكم قسمًا وميراثًا

وقد [illegible] حين [illegible] هم يعتذرون عن كثرة [illegible] التي [illegible] [illegible] ومن حيث [illegible] يديكم [illegible]، فاغسلوها بدم غير مؤمن!!(٣)

* ولم يقف دور رجال الكهنوت الكنسي الأوروبي في هذه «الحروب المقدسة» عند التنظير والتحريض على القتال والتعبئة، والترغيب في الحروب بـ«إقطاع مفاتيح الجنة»!! بل وجدنا رجال هذه الكنيسة يشاركون هم أنفسهم في مجازر هذه «الحرب المقدسة» معتبرين ذبح المسلمين أعظم القربات التي يتقربون بها لإرضاء الرب!!

فالصليبيون الذين غزوا القدس (٤٩٢هـ - ١٠٩٩م) قد ذبحوا وأحرقوا كل من وقع في أيديهم من المسلمين، حتى الشيوخ والنساء والأطفال. وذبحوا سبعين ألفاً في ساحة الحرم، حتى الذين احتموا بمسجد قبة الصخرة والمسجد العمري من الخطباء ذبحوا، وسبحت خيول الصليبيين في دمائهم إلى لجم خيلها، كما نقل ذلك عن شهود عيان رجل الدين الصليبي صاحب كتاب (تاريخ الحروب المقدسة في الشرق)(٤)

ولقد كان رجال الدين النصارى - نعم رجال الدين! - في مقدمة الذين اجترحوا هذه المذابح والاستباحات.. ولقد وصف المؤرخ الأوروبي «ميشائيل درسيرا» صنيع «البطريرك» نفسه في هذه المذبحة عندما كان يعدو في أزقة بيت المقدس، وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه، تخلصًا من الدماء اللاصقة بها، مرددًا كلمات المزمور: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقًا إن للصديق مكافأة، وإن في الأرض إلهًا يقضي» [مزمور ٥٨ : ١٠، ١١]

ثم أخذ «البطريرك» في أداء القداس، قائلاً: «إنه لم يتقدم في حياته للرب بأي قربان أعظم من ذلك ليرضى به الرب»!!(٥)

فهي حرب دينية مقدسة.. في ذات الله... ولعين الله... يحمل فرسانها صليب المسيح [illegible].. وذبح المسلمين فيها هو أعظم القربات التي يتقدم بها هؤلاء الصليبيون إلى الله!!

***

* كنيسة، جعلت الكنيسة الغربية الكاثوليكية [illegible] والبروتستانتية ضد [illegible] شعوبها وأثارت بعضهم لبعض حروباً مقدسة، حتى إنها لأكبر دليل على تعصب الاعتقاد الديني [illegible] يتعرفون بمجازرها [illegible] ويصومون [illegible] ويقيمون في ذكرى المجازر التي ارتكبوها فيها، شكراً لله!!

لقد عرفت هذه الكنيسة التي شرعت الحرب المقدسة والاضطهاد وصبغة المسيح عليه السلام [illegible] لكن الكنيسة منها "القديس [illegible]" يحتكر الحق والخلاص الديني لأتباع مذهبهم دون سواهم، فيتخذ من هذه الحروب الدينية المقدسة سبيلاً من [illegible] للإبادة المخالفين في المذهب، أو إكراههم على تغيير عقائدهم الدينية

وفي هذه الحروب الدينية المقدسة التي [illegible] أكثر من قرن من الزمان بين الكاثوليك والبروتستانت، وهي التي اشتهرت [illegible] ثماني عشرة حرباً في (١٥٦٢-١٥٦٣م) و(١٥٦٩-١٥٧٠م) و(١٥٧٢-١٥٧٣م)، (١٥٧٤-١٥٧٦م و(١٥٧٦-١٥٧٧ م) و(١٥٨٠م)، و(١٥٨٥-١٥٩٤ م)، (١٥٨٠ م و١٦٢١م)، و(١٦٢٥-١٦٢٩م) [illegible] ٤٠ من شعوب وسط أوروبا!! في هذه الحروب ذبح الكاثوليك على عهد "شارل التاسع" (١٥٥٠-١٥٧٤م) وحده أكثر من عشرين ألفاً من البروتستانت! [illegible] تهانيه على ذلك، وكذا بابا "جريجوري الثالث عشر" (١٥٧٢-١٥٨٥م) طار فرحاً بهذه المذابح المقدسة وضحاياها!! حتى أنه أمر أن تسك [illegible] ذكرى هذه المجازر المقدسة، وتوزع على شعب الكنيسة [illegible] صورة البابا على هذه الأوسمة، وفي الجانب الآخر صورة [illegible] وهو يضرب [illegible] "الملحدين البروتستانت"! وكتب على هذه الأوسمة عبارة "إعدام الملحدين"!

كما أمر [illegible] من الاحتفال بهذه المجازر المقدسة [illegible] وقرعت [illegible] في شتى الكنائس، ودعا [illegible] تصوير [illegible] على حوائط الفاتيكان(٦).

* * *

«وكانت محاكم التفتيش [illegible]

[illegible] ٨٩٧ -

٤٩٢ م) وبعد اقتلاع الإسلام من الأندلس، كانت محاكم التفتيش [illegible] التي دامت ثلاثة قرون [illegible] «الخلاص» المخالفين «بتخليصهم من الحياة» !! «فالذين لا يدعون للكنيسة، ويعتقدون بصدق نصرانيتها، تحيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة [illegible] ويصبح إبعاد الذين منهم واجبًا مقدسًا !! [illegible] وحتى الطفل – على براءته وخلو ساحته من خطايا – متى مات من غير تعميد – على المذهب الكاثوليكي – قضى بقية حياته في جهنم!، ولذلك كان طبيعيًا – في ظل هذه العقيدة بالخلاص، وهذا الدستور لاضطهاد المخالفين – أن يتعرض المتهمون بالمروق لأشد صنوف العذاب [illegible]»

ولقد توحدت [illegible] محاكم التفتيش [illegible] (٣٩٩ [illegible] ١٤٣٢ [illegible] إلا في ٦٦٦ م!

أي أن الإعدام بالحرق المقدس قد [illegible] ثلاثة قرون!

[illegible] محاكم التفتيش [illegible] ١٥٠٤) [illegible] (١٤٥٢ – ١٥١٦) [illegible] (١٤٧١ – ١٤٨٤م) وشملت حتى المستعمرات التي حكمتها إسبانيا [illegible] على المسلمين واليهود [illegible] على الشعور منهم من ضعف عن تحمل العذاب [illegible] بدينه ... وغرقت البلاد في حمام من الدم الذي سفكته محاكم التفتيش

وكان [illegible] محاكم التفتيش [illegible] تقول: «الأن يُدان مائة بريء زورًا وبهتانًا، ويعانوا العذاب أنواعًا، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد»![٨].

وعند انعقاد محاكم هذه المحاكم، «فكل من ساهم في تقديم الوقود الذي يحرق به محكوم عليه، فقد استحق المغفرة لما قدم من الذنوب»!!(٩)

* * *

هكذا عرف اللاهوت الكنسي الغربي تلك الحروب الدينية المقدسة ضد الإسلام والمسلمين وضد الكشوف العلمية في الاعتقاد وضد الأفراد الذين اتهموا بحرية التفكير والبحث العلمي خارج الإنجيل.

وانطلاقًا من هذا النموذج «التعصبي» و«التحريفي» ومن خلال هذا المنظور الغربي نظر كثير من المستشرقين الغربيين إلى الجهاد، الذي تحدث عنه القرآن الكريم... والذي جعلته السنة النبوية ذروة سنام الإسلام

* * *

-٢-

حقيقة الجهاد الإسلامي

إن الجهاد الإسلامي ليس حربًا دينية مقدسة؛ لأن الإسلام ينكر ويستنكر أي حرب دينية، فالإيمان الإسلامي تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، وهو سر بين المؤمن وبين خالقه، لا يتأتى إلا بالفهم والعلم والإقناع والاقتناع، ولا يمكن أن يكون ثمرة لأي لون من ألوان الإكراه، فضلاً عن أن يكون هذا الإكراه عنفًا قتاليًا ودمويًا، وقرر القرآن الكريم القاعدة المُحكمة والحاكمة: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦] والتي لا تعني فقط «النهي» عن الإكراه في الدين، وإنما تعني أيضًا «نفي» أن يكون هناك دين أو تدين عن طريق الإكراه؛ إذ الإكراه يثمر «نفاقًا» - وهو أخطر من «الشرك» الصريح و«الكفر» البواح - ولا يمكن أن يثمر «إيمانًا» بحال من الأحوال. ولذلك، شاعت في القرآن الكريم الآيات التي تقول للمخالفين: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ [الكافرون: ٦] ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩] والتي تحدد مهمة الرسالة في الاعتقاد: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ [المائدة: ٩٩] ﴿فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢] ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار﴾ [ق: ٤٥] ﴿وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل﴾ [الأنعام: ١٠٧].

* * *

وإذا كان الخلط بين الجهاد الإسلامي وبين الحروب الدينية المقدسة هو ثمرة من ثمار سوء الفهم للإسلام، أو سوء النية في تصوير الإسلام، فإن هناك خطأ آخر يقع فيه الذين يختزلون الجهاد الإسلامي في القتال الذي تحدث عنه القرآن الكريم، ومارسه المسلمون في عصر النبوة، وعلى امتداد تاريخ الإسلام.

وذلك أن الجهاد الإسلامي - الذي هو فريضة إسلامية - أعم من القتال لدى شريعة الإسلام - فكل قتال جهاد وليس كل جهاد قتالاً . إذ القتال هو الجانب العنيف من الجهاد، وليس كل الجهاد!

إن الجهاد في اصطلاح العربية - كما جاء في «لسان العرب» لابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ ١٢٣٢-١٣١١م) هو: «استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل» فهو لا يقف عند «الفعل» فضلاً عن أن يكون هذا «الفعل» فقط هو «الفعل العنيف» الحرب - دون سواه .

والجهاد في الاصطلاح القرآني «هو بذل الوسع في المدافعة والمغالبة» في كل ميادين المدافعة والمغالبة - أي في كل ميادين الحياة - وليس فقط في ميادين القتال .. «وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن الكريم ورد مراداً به بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها» .. وسبيل الدعوة الإسلامية هو الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن - وليس بالقتال والإكراه والحرب الدينية المقدسة - فميادين الجهاد الإسلامي الأكبر والأعظم والأغلب هي عوالم الأفكار والحوار . . .

وكذلك جاء تعريف الجهاد «بالدعاء إلى الدين الحق» في الكثير من موسوعات المصطلحات في تراث حضارة الإسلام[11] .

فبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في ميادين العلم والتعلم والتعليم هو جهاد .. وبذل الوسع واستفراغ الطاقة والجهد في عمران الأرض - نهوضاً بأمانة الاستخلاف الإلهي للإنسان - هو جهاد . .

بل إن الرفق بالإنسان والحيوان والنبات والجماد - الطبيعة - هو جهاد

وكذلك البر والإحسان إلى الوالدين والأقربين وأولى الأرحام هو جهاد

كما أن الخشية لله ومراقبته وتقواه والتبتل إليه - سبحانه وتعالى - هي قمة من قمم الجهاد الذي فرضه الإسلام . . .

ولهذه الحقيقة - حقيقة عموم الجهاد في كل ميادين الحياة، وليس اختزاله فقط في القتال - قسّم الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ ١١٠٨م) «الجهاد إلى ثلاثة أضرب

١- مجاهدة العدو الظاهر ..

٢- ومجاهدة الشيطان ..

٣- ومجاهدة النفس .

وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨] ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ [التوبة: ٤١] ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ [الأنفال: ٧٢] وقال ﷺ: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم وجاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم»(١٢)

وعندما نزلت الآيات الكريمة في ذم الشعراء ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون (٢٢٤) ألم تر أنهم في كل واد يهيمون (٢٢٥) وأنهم يقولون ما لا يفعلون (٢٢٦) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧] ذهب الشاعر الصحابي كعب بن مالك [٥٠هـ - ٦٧٠م] إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله، إن الله قد أنزل في الشعراء ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟

فقال ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل» أي رمي النبل - رواه الإمام أحمد.

والكلمة الصادقة جهاد

بل إن الموضع الوحيد الذي وصف فيه «الجهاد» بـ «الكبير» - في القرآن الكريم - كان حديثًا عن الجهاد بالقرآن - أي بالفهم والوعي والحوار بالحكمة والموعظة الحسنة - وليس حديثًا عن القتال بالسنان ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ [الفرقان: ٥٢].

بل لقد جعلت السنة النبوية - وهي البيان النبوي للبلاغ القرآني - من أفعال القلوب - وليس فقط الأيدي والألسنة - ميدانًا من ميادين الجهاد الإسلامي .. فعد

عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من نبي بعثه الله فى أمة قبلي، إلا كان من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»** - رواه مسلم -.

كذلك جعلت السنة النبوية العلم والتعلم فريضة مساوية للجهاد فى سبيل الله. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرًا أو ليعلمه كان كالمجاهد فى سبيل الله»** - رواه البخاري ومسلم -. وفى حديث كذلك أن **«الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله»** - رواه البخاري ومسلم -. وكذلك بر الوالدين، هو ميدان من ميادين الجهاد الإسلامي، بنص حديث رسول الله ﷺ. فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال له ﷺ:

- **«أحيٌّ والداك؟»**

- قال: نعم

- قال ﷺ: **«ففيهما فجاهد»** - رواه البخارى ومسلم -.

وكذلك [illegible] حراسة النفس من الشيطان، يعدها الإسلام ميدانًا من ميادين الجهاد. وكما يقول المعصوم ﷺ: **«فالمجاهد من جاهد نفسه فى الله - عز وجل»** - رواه الترمذى والإمام أحمد -.

ومثل ذلك حراسة الوطن والمرابطة على ثغور دار الإسلام. فكل الثغور هى جهاد يكون أصحابها أول من يدخل الجنة من خلق الله. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:

- **«أتدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟»**

- قالوا: الله ورسوله أعلم

قال ﷺ: **«أول من يدخل الجنة من خلق الله: الفقراء، والمهاجرون الذين تُسد بهم الثغور ويُتقى بهم المكاره»** - رواه الإمام أحمد -.

كذلك جعلت السنة النبوية الحج إلى بيت الله الحرام – وفيه التجرد من الذات وشهواتها، ومن زينتها – والتعايش السلمي حتى مع الهوام وكل أنواع الأحياء والنباتات، جعلت السنة النبوية هذا الحج ميدانًا من ميادين الجهاد الإسلامي، فقال رسول الله ﷺ فيما يرويه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه: **«الحج جهاد والعمرة تطوّع»** – رواه ابن ماجه – .

وعندما استأذنت النساء رسول الله ﷺ في الخروج إلى الجهاد القتالي، قال لهن: **«جهادكن الحج»** رواه البخاري وابن ماجه والإمام أحمد – فجعل الحج بالنسبة للرجال والنساء – ميدانًا من ميادين الجهاد الإسلامي في هذه الحياة.

تلك هي حقيقة الجهاد الإسلامي، الذي هو بذل الجهد واستفراغ الوسع والطاقة، في أي ميدان من ميادين الحياة، على امتداد هذه الميادين وتنوعها وتنوعها . . . وليس فقط هو القتال . . . فضلاً عن أن يكون الحرب الدينية المقدسة، كما عرفتها ومارستها الكهانة الكنسية الغربية في صراعها الدامي ضد الإسلام وأمته وحضارته . . . وضد المخالفين لها في الاعتقاد.

ولهذه الحقيقة كان الجهاد الإسلامي فريضة لازمة على كل مسلم ومسلمة؛ لأنه مستطاع لكل المكلفين، وفق القدرات التي امتلكها ويمتلكها هؤلاء المكلفون، وفي أي ميدان يستطيع المكلف أن يبذل جهده فيه – سائر ميادين العبادات والمعاملات – بينما كان القتال – الذي هو شعبة من شعب الجهاد – مشروطًا بشروط، وله ميادين محددة ضبطها القرآن الكريم في الآيات التي تحدثت عن القتال.

ولقد أدركت هذه الحقيقة – حقيقة مغايرة الجهاد الإسلامي للحرب الدينية المقدسة، كما عرفتها الكنيسة الأوروبية والحضارة الغربية – أدرك هذه الحقيقة نفر من علماء الغرب، الذين تحلوا بالموضوعية والعمق والإخلاص في دراساتهم للإسلام ومن هؤلاء العلماء كانت المستشرقة الألمانية الدكتورة "سيجريد هونكه" التي كشفت عن هذه الحقيقة من حقائق الجهاد الإسلامي، فقالت:

«إن الجهاد الإسلامي ليس هو ما يطلق عليه – ببساطة – مصطلح الحرب المقدسة. فالجهاد «هو كل سعي مبذول، وكل اجتهاد مقبول، وكل تثبيت للإسلام في أنفس،

حتى نتمكن في هذه الحياة الدنيا من خوض الصراع اليومي المتجدد أبدًا ضد القوى الأمارة بالسوء في أنفسنا وفي البيئة المحيطة بنا عالميًا.

فالجهاد هو المنبع الذي لا ينقص، والذي ينهل منه المسلم مستمدًا الطاقة التي تؤهله لتحمل مسئوليته، خاضعًا لإرادة الله عن وعي ويقين. إن الجهاد بمثابة التأهب اليقظ الدائم للأمة الإسلامية، لتندفع بردع كافة القوى المعادية التي تقف في وجه تحقيق ما شرعه الإسلام من نظام اجتماعي إسلامي في ديار الإسلام.

تلك هي حقيقة الجهاد لدى فرضه الله – سبحانه وتعالى – وجعله ذروة سنام الإسلام .. وبذلك جاهده المسلمون [illegible] على امتداد تاريخ الإسلام [illegible] حسنة، انطلاقًا من القرآن الكريم: ﴿وجاهدهم به جهادًا كبيرًا﴾

* * *

وعن [illegible] حقيقة الجهاد الإسلامي الأستاذ محمد عبده [illegible] فكتب يقول في تفسير قول الله – سبحانه وتعالى –: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [آل عمران: ١٤٢]

١ - ربما يقول قائل: إن الآية تفيد أن من لم يجاهد ويصبر لا يدخل الجنة، مع أن الجهاد فرض كفاية:

ونقول: نعم، إنه لا يدخل الجنة من لم يجاهد في سبيل الحق، ولكن الجهاد في الكتاب واسع يستعمل بمعناه اللغوي، وهو احتمال المشقة في مكافحة الشدائد، ومنه جهاد النفس، الذي روي عن السلف التعبير عنه بالجهاد الأكبر، ومن أمثلة ذلك مجاهدة الإنسان لشهواته، لا سيما في سن الشباب، وجهاده بماله، وما يُبتلى به المؤمن من مدافعة الباطل ونصرة الحق.

إن لله في كل نعمة علينا حقًا، وللناس علينا حقًا، وأداء هذه الحقوق يشق على النفس، فلا بد من جهادها ليسهل علينا أداؤها، وربما يفضُلُ بعض جهاد النفس جهاد الأعداء في الحرب، فإن الإنسان إذا أراد أن يبث فكرة صالحة في الناس أو يدعوهم

إلى خيرهم - من إقامة سنة أو مقاومة بدعة أو النهوض بمصلحة - فإنه يجد أمامه من الناس من يقاومه ويؤذيه إيذاء قلما يصبر عليه أحد. وناهيك بالتصدي لإصلاح عقائد العامة وعاداتهم، ومن الخاصة في ضلالتهم إلا أصعب مراسًا من العامة!

وشهد [illegible] [illegible] الإمام محمد عبده [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الحالات، وفي جميع لحظات الحياة!

***

- ٤ -

حقيقة القتال في الإسلام

وإذا كان الجهاد في الإسلام - أعم من القتال فإن القتال - الذي هو الجهاد بالسيف - والذي هو شعبة واحدة من الشعب السلمية التي لا تُحصى للجهاد متصورة ثمرته وهي القتل - عن الموت الطبيعي فالموت هو موتُ الحياة بينما القتل هو إزالة الروح وإزهاقها، وموت الحياة بفعل فاعل من الخارج يتولى هذا الإزهاق

وليس هناك شك - بل ولا غرابة في أن نجد في الإسلام تشريعًا مضبوطًا يجوّز القتال أو يوجبه في بعض الحالات، ذلك أن الإسلام دين ودولة . . . وأمة ووطن واجتماع ونظام . . . فالدين في الإسلام- لا بد لإقامته من وطن يقام فيه؛ لأن هذا الدين ليس مجرد «تكاليف فردية» يستطيع المكلف بها أن يقيمها بمعزل عن الناس، أو بإدارة الظهر للناس، وإنما فيه - إلى جانب التكاليف الفردية- تكاليف اجتماعية لا تؤدى إلا في أمة وجماعة ونظام ومؤسسات وسلطة واجتماع، أي لا بد له من وطن ودولة . . وهذه التكاليف الاجتماعية - والكفائية- هي آكد وأهم من التكاليف الفردية؛ لأن الإثم في التخلف عن التكليف الفردي يقع على الفرد فقط، بينما إثم التخلف عن التكليف الجماعي والاجتماعي - الكفائي يقع على الأمة جمعاء

بل إن أغلب التكاليف الفردية في الإسلام- تُؤدَّى وتُقام في جماعة، وثوابها في الجماعة أضعاف أضعاف إقامتها خارج الجماعة .

وبهذه الحقيقة - التي عبّر بها الإسلام عن اضطرابه التي تتمثل ذروة إقامتها كامنة في الرهبانية التي تدير الظهر للمجتمع والدنيا والناس - **كان «الوطن» هو الوعاء الذي بدونه لا تُقام جملة شعائر الإسلام وفرائضه وتكاليفه**

ولهذه الحقيقة [illegible] رفع الإسلام قيمة الحفاظ على حرية الوطن واستقلاله وسيادته، وحق المواطن، بل وواجبه في أن يعيش حرًا في وطن حر.. [illegible] رفع هذه القيمة إلى مقام الحياة!.. فجاء في القرآن الكريم حديث عن أن الإخراج من الديار معادل ومساو للقتل الذي يُخرج الإنسان من عداد الأحياء:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]. وجاء في القرآن الكريم كذلك الإشارة إلى العهود والمواثيق التي أخذها الله سبحانه وتعالى على بعض الأمم، والتي ينص بعضها أن الإخراج من الديار، والحرمان من الوطن، هو معادل لسفك الدماء والإخراج من الحياة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

ولذلك، جعل القرآن الكريم «استقلال الوطن وحريته» الذي هو ثمرة وطنية أهله وبسالتهم في الدفاع عنه، جعل ذلك «حياة» لأهل هذا الوطن.. بينما عبر عن الذين فرطوا في استقلاله ووصفهم بأنهم «أموات»!.. وجعل من عودة الروح الوطنية إلى الذين سبق لهم التفريط فيها، عودة لروح الحياة إلى الذين سبق وأصابهم الموت والموات[1]: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣-٢٤٤].

[1] [illegible] الذين خرجوا من ديارهم [illegible] في [illegible] من [illegible] ثم [illegible] وعودة الوطن إليهم، واستقلالهم بوطنهم، هو إحياء لهم بعد الممات!

ولأن هذا هو [illegible] الوطن وحريته [illegible] الإسلام [illegible] كان الجهاد [illegible] على [illegible] الوطن [illegible] الإسلام

و[illegible] الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م]

«إن معنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكّل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل من بقي من أفرادها خاضعون للغالبين ضائعون فيهم، مدغمون في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو: عودة الاستقلال إليهم!.. إن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة الملّية المحفوظة من عدوان المعتدين.. والقتال في سبيل الله... أعم من القتال لأجل الدين، لأنه يشمل – أيضًا – الدفاع عن الحوزة إذا همّ الطامع بالهجوم علينا لأجل اغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا.. فالقتال لحماية الحقيقة.. كالقتال لحماية الحق، كله جهاد في سبيل الله.. ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين»(١٥)

[illegible] الإسلام من الوطن، الأمر الذي يجعل [illegible] حريته [illegible] الإسلام [illegible] الحفاظ على [illegible] الإسلامية [illegible] الحفاظ على حرية الوطن الإسلامي [illegible] وبذلك، وقف الإسلام بالقتال – إذنًا .. وأمرًا وتحريضًا – فقط عند:

١- الحفاظ على الدين، وحرية الدعوة إليه، وتحرير ضمائر المؤمنين به من الفتنة والإكراه..

٢- والحفاظ على الوطن، وصيانة حريته وحرية أهله من العدوان

فالقتال –في الإسلام– هو الاستثناء الذي لا يجوز اللجوء إليه إلا لمدافعة الذين يفتنون المسلمين في دينهم أو يخرجونهم من ديارهم . ولقد كان منهاج الدعوة الإسلامية هو التجسيد لهذا المنهاج.

ففي البداية وعندما تعرض له المسلمون من أذى في عقيدتهم وفتنة عن دينهم واضطهاد تصاعد حتى فتنتهم عن وطنهم – مكة – وجعلتهم يهاجرون إلى يثرب (المدينة) – بعد هجرة العديد منهم إلى الحبشة – أذن الله – مجرد إذن – للمؤمنين في القتال ولقد كان الإخراج من الديار، والفتنة في الدين الأسباب التي ذكرها القرآن الكريم في كل الآيات التي شرّعت لهذا القتال

ففي الإذن بالقتال، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٨–٤٠]..

وعندما تطور الحال من «**الإذن**» في القتال إلى «**الأمر**» به جاء القرآن الكريم ليضع الإخراج من الديار سببًا لهذا الأمر بالقتال ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[البقرة: ١٩٠–١٩٢]

فهو قتال دفاعي، ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، وفتنوهم في دينهم، لتحرير الوطن الذي سلبه المشركون من المسلمين ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(١٦).

ذلك لأن منهاج الشريعة الإسلامية في الدعوة إلى الله وإلى دينه بين الناس، إنما هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين (١٢٦) واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون (١٢٧) إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٨]

بل لقد تميز الإسلام - في هذا الميدان - برفضه فلسفة **«الصراع»** لأنه يؤدي إلى أن يصرع القوي الضعيف، فيزيله، ويلغي التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، التي هي سنة من سنن الله - سبحانه وتعالى - في سائر المخلوقات ... ورفض الإسلام فلسفة «الصراع» وأحل محلها فلسفة **«التدافع»** الذي هو حراك يعدل المواقف، ويعيد التوازن والعدل، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار والتفاعل بين مختلف الفرقاء ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين (٣٣) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥]

إن الإسلام لا يريد «الصراع» الذي ينهي «الآخر» ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٧) فهل ترى لهم من باقية ﴾ [الحاقة: ٧، ٨] ... وإنما «التدافع» الذي هو حراك يحل التوازن محل الخلل الذي يصيب علاقات الفرقاء المتمايزين.

كذلك رفض الإسلام الفلسفات التي اعتبرت القتل والموت وإزهاق الأرواح حتمية جُبل عليها الإنسان، وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه ... وفي مواجهة هذه الفلسفات - التي ذهبت إلى حد اعتبار الحرب طريقًا من طرق التقدم والتطور! - **يقرر الإسلام أن القتال هو الاستثناء المكروه، وليس القاعدة ... إنه ضرورة تُقدر بقدرها. ﴿ كُتب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وليس هناك «مكتوب» - مفروض، وُصفَ في القرآن الكريم بأنه «كُرْه» سوى القتال!**

ولقد بينت السنة النبوية ... وأكدت ... هذه الفلسفة الإسلامية إزاء القتال، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله»** - رواه الدارمي -.

* * *

وحتى هذا القتال الذي كُتب على المسلمين وهو كُرهٌ لهم، والذي شرعه الإسلام [illegible] عند حماية [illegible] الذي هو حماية حرية العقيدة، وحرية الدعوة إلى العقيدة التي هي ثمرة من ثمرات الهدى، والحماية لحرية الوطن الذي هو بيضة الإسلام — حتى هذا القتال الاستثنائي والضرورة قد وضع الإسلام لآدابه الدستور الأخلاقي الذي فاق في سموّه كل المواثيق الدولية التي تعارفت عليها المجتمعات الدولية في القرن [illegible] بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، و[illegible] [illegible] لقواعد الدستور الأخلاقي لهذا القتال.

ومن قواعد [illegible] هذا الدستور الموثقة الإسلامية التي يرويها الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز (٦١ - ١٠١هـ ٦٨١ - ٧٢٠م) رضي الله عنه، وهو على رأس السلطة المسلمة — الخلافة — وليس في صفوف المعارضة — يروي فيقول: "إنه بلغني أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية يقول لهم: **اغزوا باسم الله، في سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلّوا (أي لا تخونوا) ولا تغدروا، ولا تمثّلوا (أي لا تشوهوا جثث القتلى) ولا تقتلوا وليداً**" رواه مسلم ومالك في الموطأ.

ولقد صاغ أبو بكر الصديق (٥١ ق هـ - ١٣ هـ ٥٧٣ - ٦٣٤م) رضي الله عنه وهو رأس الدولة — نفس قواعد هذا الدستور الأخلاقي للقتال والحرب، في الثقافة الإسلامية، عندما أوصى قائد جيشه يزيد بن أبي سفيان (٨ هـ - ٦٣٩م)، وهو يودعه أميراً على جيش ذاهب لرد عدوان البيزنطيين في الشام، فقال — في وثيقة الوصايا العشر —: **"إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله — الرهبان — فدعهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له.. وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبياً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلاً، ولا تغرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن"** رواه مالك في الموطأ.

فكانت هذه "وثيقة الوصايا العشر" دستوراً للآداب الإسلامية وأخلاقيات القتال، عندما يُفرض على المسلمين القتال.

* * *

[illegible] المخالفين كافة للمسلمين . . . فمن فقه آيات هذه السورة [illegible] [illegible] قال الله سبحانه وتعالى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين (١) فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين (٢) وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم (٣) إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يُحب المتقين (٤) فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم (٥) وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون (٦) كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتُم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يُحب المتقين (٧) كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون (٨) اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون (٩) لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون (١٠) فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون (١١) وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون (١٢) ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين (١٣) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم (١٥) أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾ [التوبة: ١ - ١٦]

يرجف كثير من [illegible] المستشرقين وعملاء لهم – حول هذه الآيات، زاعمين أنها تحض على القتال والتربص بالمشركين في كل مكان، وعلى القتل والإرهاب لهؤلاء المشركين . . حتى لقد قال أحد عملاء وضحايا التغريب – متسائلا [illegible] : «لكن و[illegible] لماذا يستشهد المسلمون دائمًا بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تبرز الوجه السلمي المتسامح للإسلام، ويتجاهلون النصوص الأخرى التي تحض على القتال والقتل والإرهاب؟! . . مع أن النصوص التي تحض على القتال والتربص بالمشركين نزلت بعد النصوص التي تؤكد التسامح والمساواة؟! . . »(١)

و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] التي [illegible] عليها هذه الآيات [illegible] [illegible] [illegible] فهي تميز في المشركين بين توجهات ثلاثة:

١ – مشركون معاهدون للمسلمين، يحترمون العهود . . والآيات تدعو المسلمين إلى الوفاء بالعهود لهؤلاء المشركين ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة: ٤].

٢ – ومشركون محايدون، لم يحددوا موقفًا – مع أو ضد – ويريدون أن يعلموا الحقيقة ليتحددوا لهم موقفًا . . . وهذه الآيات تطلب من المسلمين إجارة هؤلاء المشركين، وتأمينهم، ووضع الحقائق أمام بصائرهم وأبصارهم . . ثم تركهم أحرارًا، بل وحراستهم حتى يبلغوا مأمنهم، ليقرروا ما يقررون ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ [التوبة: ٦].

٣ – أما الفريق الثالث من المشركين، فهم الذين يقاتلون المسلمين، والذين احترفوا نقض العهود مع المسلمين ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾ [التوبة: ١٠] [illegible] ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾ [التوبة: ١٢] [illegible] لقد ﴿ نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم ﴾ [التوبة: ١٢]

فليس هناك تعميم يعم كل المشركين في هذه الآيات التي تعني قتال بعض المحاربين لهذا الدين المهددين للإسلام بالقتل والإرهاب [illegible] لأن النصوص الواردة في هذه الآيات ليس مقصودا بها المشركين، ولا لكل المخالفين، وإنما هي تحدد المقصودين بأنهم الذين نقضوا العهود ونكثوا الأيمان وأخرجوا الرسول ﷺ والمؤمنين من ديارهم ﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ [التوبة: ١٣].

فمعيار الإسلام ودولته، في معاملة الآخر بالسلام أو الحرب والقتال، ليس «الآخر» ولا «الكفر» ولا «الاعتقاد» و«الاختلاف»، وإنما هو العدوان المتمثل في قتال الآخرين للمسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين، المتمثلة في محاولة الإخراج من الديار. وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له يقول القرآن الكريم: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم (٧) لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [الممتحنة: ٧-٩].

وبهذا طبق المسلمون هذا المعيار في العلاقات مع المخالفين [illegible] فكان اليهود بدولة المدينة المنورة جزءا من رعية الأمة [illegible] ونص دستور هذه الدولة الإسلامية على أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم... ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَرٍ عليهم... وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وعلى اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة... وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه... فيهود أمة مع المؤمنين...»(١٨).

وبالنسبة لعموم النصارى، قررت مواثيق التسوية في هذه الدولة الإسلامية الأولى: «أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»(١٩).

* * *

* [illegible] الإسلامية على غير [illegible]

[illegible] لم تكن [illegible] ضريبة [illegible]

الإسلام من دول وقوانين [illegible] فجاء الإسلام ليستقر بها من إطار «التمييز» [illegible]

إلى إطار «العدل»، الذي هو فريضة إسلامية، والروح السارية في حضارة الإسلام

* [illegible] على [illegible]

[illegible]

وضريبة الجندية وحماية الدولة والدفاع عن رعيتها وأمتها - المسلمين منها وغير المسلمين كان المسلمون هم القائمين الأساسيين بأدائها، لاعتبارات أمنية اقتضتها المراحل الأولى من الفتوحات وتكوين الدولة وحتى لا يجبر غير المسلمين على الانخراط في جيش يخوض معارك لا تقتنع بها ضمائرهم وثقافتهم، التي لم تكن قد توحدت مع الثقافة الإسلامية في تلك المرحلة المبكرة من تكوين الدولة الإسلامية فكانت هذه الجزية بدلاً من الجندية، ولم تكن بدلاً من الإيمان بالإسلام. ويشهد على ذلك أنها لم تفرض إلا على القادرين على أداء الجندية، مالكين لما يدفعونه ضريبة لهذه الجندية ولو كانت بدلاً من الإيمان بالإسلام لوجبت على كل المخالفين في الدين.. ولم يكن أمرها كذلك، فهي لم تفرض على الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ولا العجزة ولا المرضى من أهل الكتاب، وهؤلاء جميعًا مخالفون للمسلمين في الدين كما أنها لم تفرض على الرهبان ورجال الدين، وهم من هم مخالفة في الدين. وكل الفقهاء المسلمين - باستثناء فقهاء المالكية - يقولون إنها «بدل عن النصر والجهاد»(٢٠).

ولقد شهدت على ذلك - أيضًا - التطبيقات الإسلامية لضريبة الجزية هذه

* لقد فرضت على القادرين - بمبلغ ومال - من [illegible]

ذلك كان إعفاؤهم من الجندية.. فقد [illegible]

«لا يُكَلَّف أحدٌ من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران وأن يكون المسلمون ذُبَّابًا عنهم، وجوارًا من دونهم»(٢١).

* وفي البلاد التي فتحها عصر المسلمين [illegible] الجزية [illegible] مع المسلمين، ثم فرض عليهم الجزية، [illegible] مع المسلمين في [illegible] في [illegible] [illegible]. وحدث ذلك في «جرجان»، وبنص معاهدة [illegible] «سويد بن مقرن» [illegible] [illegible] «ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوض من جزائه»(٢٢). وحدث ذلك مع أهل «أذربيجان»، وبنص عليه معاهدة القائد «عتبة بن فرقد» عامل عمر بن الخطاب (٤٠ق هـ - ٢٣هـ / ٥٨٤ - ٦٤٤م) مع [illegible] «ومن حُشر - أي استدعي للقتال - منهم في سنة وُضع عنه جزاء - أي جزية - تلك السنة...»(٢٣).

وحدث ذلك - أيضًا - مع أهل «أرمينية» وبنص عليه معاهدة القائد «سراقة بن عمرو» (٣٠هـ / ٦٥٠م) عامل عمر بن الخطاب - مع أهلها، إذ نصت معاهدته «على أن يوضع - يسقط - الجزاء - الجزية - عمن أجاب إلى ذلك الحشر - (الحشد للقتال) - والحشر عوض عن جزائهم - جزيتهم - ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء - الجزية...»(٢٤).

وحدث ذلك - أيضًا - مع «الجراجمة»، سكان الجرجومة، في شمالي سوريا، بالقرب من أنطاكية، عندما حاربوا [illegible] [illegible] [illegible] في جيش المسلمين، على عهد القائد «حبيب بن مسلمة الفهري» (٢ق هـ - ٤٢هـ / ٦٢٠ - ٦٦٢م). وحدث ذلك - أيضًا - مع [illegible] من أهل «حمص» عندما حاربوا في صفوف جيش «أبي عبيدة بن الجراح» (٤٠ق هـ - ١٨هـ / ٥٨٤ - ٦٣٩م) في موقعة «اليرموك» ضد الروم البيزنطيين(٢٥). وحدث ذلك أيضًا مع بني تغلب، وهم عرب نصارى، [illegible] عنهم عمر بن الخطاب «لأنهم عرب [illegible] الجزية»(٢٦).

ونرى من هذه الحقيقة ووضوحها أن الجزية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] قادر على الخدمة وعلى دفعها، [illegible] [illegible] لأمر [illegible] الإسلام، ومن ثم فقد [illegible] في [illegible] على [illegible] في الإسلام [illegible] في [illegible] «[illegible]» مع [illegible] «عبد الرحمن بن ربيعة» (٣٢هـ / ٦٥٢م) عندما عقد صلح

[illegible] سنة ٢٢هـ، فعقد لهم «شهربراز»: «أن اليوم منكم، ويدي مع أيديكم، وصغوي - «ميلي» - معكم [illegible] وجزيتنا إليكم: النصر لكم والقيام بما تحبون [illegible].» ولقد أجيب إلى طلبه بعد مشاورة القائد «عبد الرحمن بن ربيعة» مع «سراقة بن عمرو» (٣٠هـ-٦٤٥م)..

ولقد استمر ذلك سُنّة متبعة في علاقات الدولة الإسلامية بشعوب البلاد المفتوحة. [illegible] حتى ليقول الطبري - عن إسقاط الجزية عن الذين انخرطوا في الجندية من غير المسلمين [illegible]: «وصار ذلك سُنّة فيمن كان يحارب العدو من المشركين [illegible]»[٢٧]

* * *

تلك هي حقيقة النظرة الإسلامية إلى القتال... **إنه الاستثناء لا القاعدة..** وهو الاستثناء المكروه [illegible]. ولا يجوز اللجوء إليه إلا دفاعًا عن حرية الاعتقاد والضمير... وحرية الوطن، الذي بدون حريته يستحيل إقامة الاعتقاد الديني على النحو الذي أراده الله - سبحانه وتعالى - في شريعة الإسلام..

وإذا كان بعض المفترين لا يزالون يرددون أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف والقتل والقتال [illegible] فإننا نلفت أنظارهم إلى أن كل المعارك التي دارت في الفتوحات الإسلامية إنما كانت ضد جيوش الغزو والاحتلال الرومانية والفارسية، ولم تدر معركة واحدة بين جيوش الفتح التحريري الإسلامية وبين أهل البلاد المفتوحة.. بل لقد قاتل أهل البلاد المفتوحة مع الجيوش الإسلامية [illegible] وهم على دياناتهم القديمة - ضد الروم والفرس [illegible]. وشهد أساقفتهم [illegible] الذين عاصروا هذه الفتوحات وشهدوها - على أن الفتوحات الإسلامية قد كانت إنقاذًا لهم ولدياناتهم من الإبادة التي مارسها ضدهم المستعمرون الرومان.. فقال الأسقف «يوحنا النقيوسي» وهو شاهد على الفتح الإسلامي لمصر - [illegible] «إن الله الذي يصون الحق - لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرؤهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين - (العرب المسلمين - أبناء إسماعيل - عليه السلام -).

ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر، وكان عمرو بن العاص (٥٠ ق هـ - ٤٣هـ ٥٧٤ - ٦٦٤م) يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا

من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما سلباً أو نهباً، وحافظ على الكنائس طوال الأيام...»(٢٨)

ويؤكد على هذه الحقيقة [illegible] في [illegible] الإسلامية [illegible] الخوش العربية التي استعملت [illegible] عشرة قرون [illegible] الأوطان الشرق وصغار شعوبه [illegible] عشر [illegible] الكنيسة المصرية - اليعقوبية [illegible] كما كانت [illegible] من قبل المذهب [illegible] حتى جاء [illegible] الإسلامي، فكان [illegible] «نعمة الإسلام» [illegible] الأسقف على ذلك قائلاً: «إن الإمبراطور الروماني لم يسمح لكنيستنا بالظهور (أي لم يكن معترفاً بها) ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه.

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام»(٢٩)

وقد حرر الفتح الإسلامي كنائس مصر من [illegible] الإسلامية، [illegible] وأعطى عمرو بن العاص [illegible] (٣٩هـ ٦٥٩م) [illegible] بعد ثلاثة عشر عاماً من [illegible] إلى شعبه، وتسلم كنائسه [illegible] في فرح عمر عند الأسقف "يوحنا النقيوسي" بقوله: «ودخل الأنبا بنيامين بطرك المصريين مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الرومان ثلاثة عشر عاماً، وسار إلى كنائسه، وزارها كلها... وكان كل الناس يقولون: هذا النفي، وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين... وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر...»(٣٠)

وغير شهادات هؤلاء الشهود [illegible] الفتوحات الإسلامية [illegible] من علماء الغرب على [illegible] ومن هؤلاء العلماء المستشرقة الألمانية [illegible] الدكتورة [illegible] التي كتبت [illegible]

إلى اليوم، وبعد مرور أكثر من ألف عام، لا يزال الغرب النصراني متمسكًا بالحكايات المختلقة الخرافية التي كانت الحملات تروجها، حيث زعم مختلقوها أن الجيوش العربية، بعد موت محمد، نشرت الإسلام بالنار وبحد السيف البتار من الهند إلى المحيط الأطلسي، ويلح الغرب على ذلك بكافة الوسائل: بالكلمة المنطوقة، أو المكتوبة، وفي الجرائد والمجلات، والكتب والمنشورات، وفي الرأي العام، بل في أحداث حملات الدعاية ضد الإسلام.

﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦] تلك هي كلمة القرآن الملزمة. فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامي، وإنما بسط سلطان الله في أرضه، فكان للنصراني أن يظل نصرانيًا ولليهودي أن يظل يهوديًا، كما كانوا من قبل. ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم، وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك. ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضررًا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبِيَعهم وصوامعهم وكنائسهم..

لقد كان أتباع الملل الأخرى -وبطبيعة الحال من النصارى واليهود- هم الذين سعوا سعيًا لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين. ولقد ألحوا في ذلك شغفًا وافتتانًا، أكثر مما أحب العرب أنفسهم، فاتخذوا أسماء عربية وثيابًا عربية، وعادات وتقاليد عربية، واللسان العربي، وتزوجوا على الطريقة العربية، ونطقوا بالشهادتين، لقد كانت الروعة كامنة في أسلوب الحياة العربية، والتمدن العربي، والسمو والمروءة والجمال، وباختصار: السحر الأصيل الذي تتميز به الحضارة العربية -بغض النظر عن الكرم العربي والتسامح وسماحة النفس. كانت هذه كلها قوة جذب لا تقاوم. إن سحر أسلوب المعيشة العربي ذلك قد اجتذب إلى فلكه [illegible] إبان وقت قصير، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسي «فولشير شارتر»: «وها نحن الذين كنا أبناء الغرب قد صرنا شرقيين! أفبعد كل هذا ننقلب إلى الغرب الكئيب؟! بعدما أفاء الله علينا، وبدّل الغرب إلى الشرق؟!» بهذا انتشر الإسلام وليس بالسيف أو الإكراه...»(٣١)

[illegible]

[illegible] ١٨٨٨ - ١٩٦٥م عن «لقد استقبل العرب على الأغلب-

فى سوريا ومصر والعراق ترحاب؛ لأنهم قضوا القضاء المبرم على الابتزاز الإمبراطورى، وأنقذوا المسيحية المنشقة من الضغط الكريه الذى كانت تعانيه من الحكومة المركزية البيزنطية – وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والأحاسيس المحلية أكثر من معرفة الأغراب»(٣٢) .

تلك هى حقيقة القتال فى الإسلام . . . وتلك هى مقاصده

رد العدوان عن حرية الاعتقاد والضمير، حتى لا تكون فتنة [illegible] ويكون الدين والتدين كله لله.

رد العدوان عن حرية الوطن، الذى بدون حريته لا يمكن أن يكون هناك مواطن حر . . . والذى بدون حريته لا يمكن أن تتحقق حرية إقامة فرائض الإسلام

إنه مجرد شعبة من شعب الجهاد [illegible] وهو الاستثناء لا القاعدة [illegible] التى تضطر إليها [illegible] وهو الفريضة المكروهة [illegible] وليس حتمية [illegible] [illegible] خارج نطاق الإسلام!

* * *

- ٥ -

حقيقة الإرهاب

وإذا كان الغرب - بل والصهيونية - أن تشن أمريكا - منذ «قارعة» ١١ سبتمبر ٢٠٠١م - حربًا عالمية على ما تسميه «الإرهاب» دون الاتفاق على معنى هذا «الإرهاب»!! بل وفي ظل الإصرار على رفض عقد مؤتمر دولي تتفق فيه الحضارات العالمية وثقافاتها على تعريف لهذا «الإرهاب»!!

وإذا كان ذلك هو موقف الغرب والصهاينة وأمريكا فإن السر في هذا الموقف الغربي والصهيوني والأمريكي هو أن هذه الحرب العالمية الجديدة قد أرادها أصحابها حربًا على «الإسلام» تحت عنوان «الإرهاب»!

ويشهد على هذه الحقيقة - التي لم يعد بالإمكان إخفاؤها -:

١ - أن الرئيس الأمريكي «جورج بوش الصغير» قد وصف هذه الحرب في ١٦ سبتمبر ٢٠٠١م - أي قبل أن يتحقق في «قارعة» ١١ سبتمبر - بأنها «حملة صليبية» أي حرب دينية مقدسة!

٢ - ولم تنجح محاولات الاعتذار عن هذا الوصف، والقول إنه مجرد «زلة لسان»!.. حتى إن مدير إدارة الفاتيكان «الكاردينال سكوالي بوتي جوميو» قد أكد دقة هذا الوصف، وطبيعة هذه الحرب الأمريكية، فقال: **«في الوقت الذي يدعو الفاتيكان إلى التعقل، ويشجع العمل الدبلوماسي، ويدافع عن الحق الدولي - أي الشرعية الدولية - نرى في الجانب الآخر قوة عظمى - أمريكا - تقودها إدارة خولت لنفسها مهمة إنقاذية - مقدسة - واتخذت لهجة ومواقف صليبية»!**[٣٣]

٣- كما عبر [illegible] الفاتيكان "يوحنا بولس الثاني" (١٩٢٠-٢٠٠٥م) عن «خشيته من أن تثير الحرب الأمريكية على العراق صراعًا دينيًا بين المسيحيين والمسلمين».

٤- وقال الكاردينال "بيو لاجي" [illegible] في [illegible] على [illegible] حرب على العراق في [illegible] ٢٠٠٣م: «إنها حرب ستقودنا إلى مستقبل مظلم سيقوض فرص الحوار بين المسيحية والإسلام...»[٣٠]

٥- [illegible] في [illegible] «إن بوش يستخدم المسيح درعًا والصليبية ثوبًا للدفاع عن مصالح أمريكا المادية [illegible] وإنه كان يقصد تمامًا معنى عبارة «الحملة الصليبية» ولم تكن أبدًا زلة لسان»

٦- ووصف [illegible] الأمريكي [illegible] "جيمي كارتر" [illegible] الأمريكية [illegible] أيديولوجية «المؤتمر المعمداني الجنوبي الأمريكي - سوثيرن بابتست كونفنشن» - المعروفة بالالتزام بحماية إسرائيل من منطلقات ثيولوجية ضيقة تستند إلى فكرة آخر مرحلة حياتية قبل حلول يوم الدينونة»[٣٢]

٧- [illegible] «إن الإدارة الأمريكية مدفوعة في هذه الحرب بالحماسة المسيحية»![٣٣]

٨- ووصف [illegible] الأمريكية - قائد هذه الحرب - الرئيس "بوش الصغير" بأنه «حامل الشارة... الذي يؤمن بأن حربه على العراق ستكون حربًا عادلة وفق المفهوم المسيحي كما شرحه القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م)، وفصّله كل من توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م) ومارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م) وآخرون. وأنه - بوش - عندما استخدم مصطلح «الأشرار» قد سحب هذه الكلمة مباشرة من المزامير [illegible] وأنه يفكر في سياسة خارجية تستند إلى الإيمان المسيحي ويفكر في حرب باسم الحرية مشبهًا بين دفع الحرية [illegible] في القلب القديم للإسلام العربي [illegible] ويحظى بدعم من قاعدته في الجناح السياسي للمؤتمر المعمداني الجنوبي، من أمثال القساوسة «ريتشارد لاند»، و«فرانكلين جراهام» [illegible] الأب الروحي

بوش - والذى سب رسول الإسلام، وندد بالإسلام باعتباره إيماناً عنيفاً فاسداً! ولا يخفى - مع المبشرين الإنجيليين - رغبتهم تحويل المسلمين إلى المسيحية - لا سيما فى بغداد...!![٣٨].

فى الوقت الذى شهدت فيه هؤلاء الشهود - وغيرهم كثيرون - من شهادات على حقيقة هذه الحرب الأمريكية، التى شُنت على الإسلام، عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م شهد كذلك كثيرون من مفكرى الإستراتيجية الذين يخططون لهذه الحرب، الأمريكى على ذات الحقيقة: حقيقة أن هذه الحرب ليست على "الإرهاب"، وإنما هى حرب داخل الإسلام، تستهدف [illegible] والسياسة والقانون، والقيم والأخلاق، والدنيا والآخرة... وذلك حتى يقبل الإسلام - بدلاً من ذلك - بالقيم الغربية، والحداثة الغربية، والعلمانية الغربية والمبدأ المسيحى الذى يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

ومن بين عشرات الشهادات الأمريكية والغربية على هذه الحقيقة - حقيقة أنها حرب على الإسلام، تحت دعاوى "الإرهاب" - [illegible] حرصنا على عدم الإطالة من بين عشرات الشهادات نختار - مراعاة للمقام - شهادة المفكر الاستراتيجى الأمريكى [illegible] التى يقول فيها: "إن الصراع الحالى ليس ببساطة ضد الإرهاب... ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى تقف ضد الحداثة الغربية... وضد الدولة العلمانية... وهذه الأيديولوجية الأصولية تمثل خطراً أكثر أساسية - فى بعض جوانبه - من الخطر الذى شكلته الشيوعية.. والمطلوب هو حرب داخل الإسلام... حتى يقبل الحداثة الغربية والعلمانية الغربية... والمبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله"!![٣٩].

إنها حقيقة - حقيقة أنها حرب على الإسلام، حتى يقبل الحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، [illegible] على الإرهاب [illegible] فى هذه الحرب وثيقة [illegible] خصوصاً [illegible] على [illegible] الحضارية والإسلامية التى تجمع على [illegible] مؤتمر دولى لتحديد معنى "الإرهاب" والتمييز بينه وبين "الجهاد الإسلامى" [illegible]

مشروع "تحرير الأوطان من الاستعمار" الأمر الذي يزيد من أهمية وضرورة التحديد والتحرير للمعنى والمضمون والمفهوم الإسلامي للإرهاب

* * *

إن المفهوم الغربي لمصطلح "الإرهاب Terror" والذي يعني استخدام العنف غير المشروع لترويع الآمنين، والإكراه لهم على قبول ما لا يريدون، وخصوصًا عندما يكون هذا الإرهاب تمارسه السلطة الحاكمة ضد المحكومين، أي الإرهاب الذي يبث الرعب في نفوس المحكومين[1]؛ إن هذا المفهوم الغربي للإرهاب هو أبعد ما يكون عن مفهوم هذا المصطلح في المعاجم العربية وفي القرآن الكريم، الذي هو كتاب العربية الأول... وديوان شريعة الإسلام....

بل إن الإسلام ليبرئ سائر الديانات السماوية من أن يكون الإرهاب والعنف والإكراه والترويع للآمنين سبيل أي منها في الدعوة إلى شريعة أي دين من هذه الديانات.

* فمنهاج الدعوة إلى اليهودية في شريعة موسى عليه السلام هو "القول اللين"، وليس العنف والحرب، والقتال والإرهاب: ﴿اذْهَبْ أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذِكْري (٤٢) اذهبا إلى فرعون إنه طغى (٤٣) فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٤) قالا ربنا إننا نَخاف أن يفرط علينا أو أن يطْغى (٤٥) قال لا تخافا إنني معكُما أسمع وأرى (٤٦) فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلامْ على من اتبع الهُدَى﴾ [طه: ٤٢-٤٧].

ولأن موسى عليه السلام لم يقم دولة، ولم يقد جيشًا، ولم يخض حربًا، ولا قتالاً وإن ولد ونشأ وبعث ومات ودفن في مصر فقد ظلت شريعته حقيقة بريئة من أي إكراه أو عنف أو إرهاب..

* وكذلك الحال مع النصرانية التي جاء بها عيسى بن مريم عليه السلام فهي شريعة الصوفية المسالمة، والسلام الصوفي، الذي يبلغ في السلام والمسالمة حدودًا ومُثلاً ربما عزت على التطبيق في نطاق هذا العالم.

ولذلك قال المسيح: إن مملكته ليست في هذا العالم!.. فبراءة النصرانية والمسيحية في الدعوة من العنف والإكراه والإرهاب الذي يروّع الآمنين، براءة لا تحتاج إلى كثير حديث.

* وكذلك الحال مع منهج الدعوة الإسلامية.. في الدعوة إلى الله.. فقد جاءت مؤكدة على المنهج الإلهي في الدعوة إلى الدين الإسلامي.. منهج الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.. لأن هذا المنهج هو الوحيد الذي يثمر إيمانًا وتصديقًا قلبيًا يبلغ مرتبة اليقين.. بينما الإرهاب – بمعنى ترويع الآمنين وإكراههم على ما لا يريدون – هو السبيل لخلق النفاق الذي هو أشد سوءًا من الشرك الصريح، والكفر البواح.. وليس سبيل الإيمان بأي حال من الأحوال.

* * *

أمام أولئك الذين يستندون إلى ورود الإشارة في القرآن الكريم – سورة الأنفال – إلى الإرهاب، فإن خطأهم القاتل – هذا إذا حسنت النوايا.. – ومنشأ الوهم – هو في وقوفهم عند المصطلح، مغفلين تمييز مفهوم هذا المصطلح في القرآن الكريم واللغة العربية عن مضمونه الغربي الذي شاع ويشيع الآن في دوائر الفكر والثقافة والسياسة والإعلام.. ولو أنهم فهموا سياق الآيات القرآنية التي ورد فيها هذا المصطلح – سورة الأنفال – ثم جمعوا إلى آيات الأنفال كل الآيات التي ورد فيها هذا المصطلح ومشتقاته في القرآن الكريم، ثم فسروا هذه الآيات، وفقهوا هذا المصطلح وفق مضمونه العربي وسياقه القرآني، لما تطرق إلى ذهن أحد أن هناك أدنى علاقة بين الإسلام وبين الإرهاب – بمعنى ترويع الآمنين بالعنف والعدوان والإكراه –.

إن آيات سورة الأنفال تتحدث عن المشركين الذين يقاتلون المسلمين، بفتنتهم في دينهم، وإخراجهم من ديارهم، وتخص بالحديث قومًا من هؤلاء المشركين المقاتلين احترفوا الخيانة للعهود، وأخذ المسلمين على غرة، رغم ما بينهم من عهود للسلم والأمان.. فتطلب هذه الآيات القرآنية من المسلمين أن يعدوا من العدة، ويتخذوا من القوة ما يرهب ويخيف – أي يردع – هؤلاء الذين مردوا على الخيانة، ونقض العهود، والغدر والعدوان.. ما يردعهم عن هذه الخيانة وهذا العدوان..

يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ في هذه الآيات فيقول:

﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين (٥٨) ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون (٥٩) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٦٠) وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم (٦١) وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين (٦٢) وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ [الأنفال: ٥٨-٦٣]

فمعنى الإرهاب هنا هو التخويف لردع الخونة والمخادعين والغادرين، كي لا يغدروا بالمسلمين المعاهدين [illegible] وهو تخويف يثمره إعداد القوة الرادعة [illegible] وليس تخويف العدوان والعنف والإكراه، أي أنه التخويف الذي ينفي العنف والإكراه والقتال... فهو كالعقوبة الرادعة، إعلانها يمنع ويردع عن الجريمة، ومن ثم يمنع تطبيقها.. ولا علاقة لهذا الإرهاب بهذا المعنى بترويع الآمنين، وإكراههم بالعنف والقتال والإكراه الذي هو معنى مصطلح "الإرهاب - Terror" في الفكر الغربي.

إن امتلاك الاتحاد السوفيتي [illegible] في منتصف القرن العشرين لسلاح الردع النووي والهيدروجيني، هو الذي منع وردع أمريكا وحلفاءها من العدوان على المعسكر الشرقي [illegible] فتحقق الأمن والأمان للإنسانية من هذه الكارثة النووية [illegible] وكذلك الحال مع امتلاك باكستان للردع النووي، هو الذي حمى [illegible] الهند سلاحها النووي ضد باكستان [illegible] بل إنه فتح [illegible] الردع النووي [illegible] السلام بين البلدين [illegible] ولو كانت اليابان سنة ١٩٤٥م تملك الردع النووي لأرهبت وأخافت أمريكا، ولنجت هيروشيما ونجازاكي من الكارثة النووية التي حلت بهما في ذلك التاريخ!

وهنا يكون الإرهاب بمعنى التخويف بردع الأعداء هو الضمان لتحقيق الأمن والسلام للجميع.

* * *

ويشهد على هذه الحقيقة المفهومية، مع السياق الذي وردت به الآيات معنى المصطلح (الرهب) في العربية لغة القرآن الكريم.

ونحن عندما نعود إلى الراغب الأصفهاني في كتابه (المفردات في غريب القرآن) نجد أن معنى (الرهب) في اللغة العربية هو على القصد من الخوف الذي يروّع الأنفس ويرعبهم فهو من «الرهبة، بمعنى المخافة، مع تحرّز واضطراب».

ونحن هنا حيث نفكر في تفسير المخافة والرهبة والخشية بالمعنى الذي يروّع الأنفس ويرعبهم، ونشهد على ذلك كل الآيات القرآنية التي وردت فيها إشارات إلى هذا المصطلح - وتعبر بيانه بمعانيه: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ [الأعراف: ١٥٤] أي الذين يخافون ربهم ويخشونه.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ [البقرة: ٤٠] أي خافوني واخشوني، ولا تخشوا أحداً سواي.

﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون﴾ [النحل: ٥١] أي أفردوا الله -سبحانه وتعالى- بالمراقبة والخشية؛ لأنه متفرد بالألوهية وحده لا شريك له.

﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين (١١٣) قال نعم وإنكم لمن المقربين (١١٤) قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين (١١٥) قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ [الأعراف: ١١٣ - ١١٦] أي، أخافوهم خوفاً شديداً.

﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون (٢٩) فلما أتاها نودي من

شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين (٣٠) وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرًا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين (٣١) اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قومًا فاسقين﴾ [القصص: ٢٩-٣٢] أي: من الخوف.

﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدًا أبدًا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون (١١) لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون (١٢) لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون (١٣) لا يقاتلونكم جميعًا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ [الحشر: ١١-١٤] أشد رهبة: أشد تخويفًا

﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين (٨٩) فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠] ﴿رغبًا ورهبًا﴾ أي: رغبة في رحمتنا، وخوفًا من عذابنا

﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ [التوبة: ٣٤] ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣]

﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣٠) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو

سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٠–٣٢]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

[الحديد: ٢٦_٢٧]

فالرهبان: هم الذين يبالغون فى الخوف من الله وفى خشيته... والرهبانية: هى المبالغة فى الخشية من الله... وليس فى أى من مضامين هذه المصطلحات القرآنية– يرهبون... فارهبون... تُرهبون... استرهبوهم... الرهْب... الرهبة... الرهبان... الرهبانية – ما يشى من قريب أو بعيد للمعنى العربى للإرهاب، معنى: العنف الذى يروّع الأبرياء والآمنين ويرعبهم.

* * *

وإذا كان بعض المرجفين المفترين يذهبون –رغم هذه الحقائق التى قدمناها– إلى اتهام الإسلام بالتأسيس للإرهاب،

فيقول الزعيم الدينى –السياسى– القس الأمريكى «بات روبرتسون» –مؤسس جماعة «التحالف السياسى المسيحى» التى تسيطر على الكونجرس الأمريكى، والحزب الجمهورى، والإدارة الأمريكية –وهو مرشح أسبق للرئاسة الأمريكية والأب الروحى للرئيس «بوش الصغير» الذى ولد –بوش– على يديه ولادته المسيحية الجديدة...!... يقول هذا القس:

«إن الدين الإسلامى دعا إلى العنف... وإنه بالنظر إلى المعنى الحقيقى لآيات قرآنية، فإن أسامة بن لادن أكثر وفاء لدينه الإسلامى من آخرين...!!»(٤)

ويقول المستشرق الصهيونى الأمريكى «برنارد لويس»:

«إن الإرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب.. فالنظام الأخلاقي الذي يستند إليه الإسلام مختلف عما هو في الحضارة اليهودية/ المسيحية الغربية. وآيات القرآن تصدّق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين. وهذه الحرب هي حرب بين الأديان»!!(٤٢).

وتقول «مارجريت تاتشر» – رئيسة وزراء انجلترا الأسبق –:

«إن تحدي الإرهاب الإسلامي الفريد لا يقف عند أسامة بن لادن، وإنما يشمل حتى الذين أدانوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر على أمريكا والذين انتقدوا أسامة بن لادن وطالبان، لكنهم يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب»!!(٤٣).

[illegible] بعض [illegible] قد جعلوا الإسلام [illegible] قتل الأبرياء وترويع الآمنين، ثم فضحتهم أقلامهم [illegible] عندما اعتبروا «رفض القيم الغربية» [illegible] ضد الأطماع الغربية» هو «عنف دموي»!! [illegible] هي «النفاق الفكري» الذي جعلهم يتهمون «الضحية» ويبرئون «الجناة»! [illegible] يقولون لهم

- ألم تروا الممارسات التي تتعرض لها شعوب إسلامية كثيرة، قد غدت ضحايا وفرائس للعنف الغربي الصهيوني في فلسطين، والعراق والشيشان، وتايلاند، ، وبورما ، والفلبين ، وغيرها من بلاد الإسلام؟!

إن إخراج الناس من ديارهم وأوطانهم، وتحويلهم إلى لاجئين، هو عنف وإرهاب وترويع للأبرياء والآمنين وأغلب اللاجئين على النطاق العالمي هم من المسلمين!!

وإن نظرة على تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق، لتضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على قرون الغزو والعنف والقهر الثقافي والسياسي والديني والحضاري الذي مارسه الغرب ضد الشرق أغلب قرون ذلك التاريخ

- عشرة قرون من الغزو والقهر الإغريقي / الروماني / البيزنطي من «الإسكندر الأكبر» (٣٥٦-٣٢٣ ق م) في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى «هرقل» (٦١٠-٦٤١م)- في القرن السابع للميلاد - . . .

- وقرنان من الحروب الصليبية (٤٨٩ ٦٩٠هـ-١٠٩٦-١١٩١م)

- وخمسة قرون هي عمر الغزوة الغربية الحديثة التي بدأت منذ إسقاط غرناطة (٨٩٧هـ-١٤٩٢م) بالالتفاف حول عالم الإسلام. ثم استعمرت سائر أقطار الإسلام - وهي الغزوة التي تعالج هيمنتها حتى هذه اللحظات!

وإن نظرة على خريطة الشرق وعلى خريطة الغرب ستضع أيدينا وأبصارنا وبصائرنا على الحقيقة التي تقول: أين هو الغزو والاحتلال والاستغلال الذي يروع الآمنين ويرهب الأبرياء؟!

- إن القواعد العسكرية الغربية تملأ ديار الإسلام.

- ومئات الآلاف من الجنود الغربيين يحتلون الكثير من أوطان عالم الإسلام

ومئات الشركات الغربية العابرة للقارات والجنسيات تنهب ثروات عالم الإسلام.

بينما تخلو خريطة الغرب من أي وجود للإسلام أو جنود للمسلمين وحتى الأفراد المسلمين الذين يعيشون في المجتمعات الغربية قد غدوا - وخاصة بعد «قارعة» سبتمبر ٢٠٠١م - ضحايا لألوان من التمييز والترويع والسجن والاعتقال «بأدلة» سرية لا تعلن، ولا يعرفها حتى المحامون!! واعتقالات مؤبدة مدى الحياة، دون إعلان لسبب الاعتقال!! فقط للاشتباه أو لأنهم مسلمون!! الأمر الذي يذكرنا بكلمات المستشرق الفرنسي «جاك بيرك» (١٩١٠-١٩٩٥م) التي قال فيها عن تاريخ علاقة الغرب بالإسلام -.

«إن الإسلام الذي هو آخر الديانات السماوية الثلاث، والذي يدين به أزيد من مليار نسمة في العالم، والذي هو قريب من الغرب جغرافيًا، وتاريخيًا، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم، قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة بالنسبة للغرب.

ابن العم المجهول...

والأخ المرفوض...

والمنكور الأبدى . . .

والمعد الأبدى . . .

والمتهم الأبدى . . .

والمشتبه فيه الأبدى. . .»[43]

فأين هو الإرهاب الذى يروّع الأبرياء والآمنين ؟!

ومن هم الذين يقننون ويمارسون هذا اللون من الإرهاب؟!

وإذا كان «التراث اليهودى» - وليست شريعة موسى - عليه السلام - قد غدت مكوناً من مكونات الحضارة الغربية التى تمارس مؤسساتها الإمبريالية [illegible] وليس يهودها هذه الممارسات مع الشرق الإسلامى [illegible] ومع المسلمين [illegible] فإننا نقرأ فى هذا التراث اليهودى تقديم دعوة إلى إبادة «جميع الشعوب الذين على وجه الأرض [illegible] وأكل كل الشعوب أكلاً [illegible] دون أن تقطع لهم عهداً» ولا تشفق عيناك عليهم [illegible] وأن تمحو ذكرهم من تحت السماء [illegible] مثل العماليق -»[44] سفر التثنية إصحاح ٧ : ١-٦، ١٤-١٦، إصحاح ٢٠ : ١٠-١٦، إصحاح ٢٥ : ١٩

كما نقرأ هذا «الفكر» - فى عصرنا الراهن - الفتاوى الحاخامية التى تضع هذا «التراث اليهودى» فى الممارسة والتطبيق على أرض فلسطين [illegible] ودعك من مثل فتوى الحاخام الصهيونى «العقيد [illegible] (رغل)» التى يقول فيها للجنود الصهاينة المحتلين للضفة العربية

«إن الهالاكاه - الشريعة- تحض على قتل حتى المدنيين الطيبين»!![45]

فأين نحن، وأين العالم من هذا الإرهاب الذى يروّع الآمنين، ويقتل حتى الأبرياء الطيبين؟!..

وأين نحن، وأين العالم من هذا «الفكر» الذى ينظر ويبرّر لهذا اللون من الإرهاب؟!

- إن المسلمين لم يكونوا هم الذين أبادوا شعوب الهنود الحمر ودمروا حضاراتهم!

- وليسوا هم الذين استخدموا أسلحة الدمار الشامل - الذرية - في إبادة المدنيين الأبرياء في هيروشيما ونجازاكي باليابان سنة ١٩٤٥م!

- وليسوا هم الذين سمموا تربة الأرض وأحرقوا الغابات وأبادوا ثلاثة ملايين من البشر في فيتنام!

- ولا هم الذين قتلوا قرابة المليونين من الشهداء في الجزائر!..

- ولا هم الذين استخدموا اليورانيوم المنضب، والقنابل العنقودية، وسمموا البيئة، وقتلوا عشرات الآلاف، بل ودمروا حتى كنوز الآثار الحضارية النادرة والنفيسة في العراق!..

- ولا هم الذين أبادوا سبعين مليونًا من البشر في حربين استعماريتين عالميتين شهدهما القرن العشرون!..

ولا هم الذين حولوا الكثير من بلاد الجنوب إلى مقابر للنفايات الذرية المدمرة والمهلكة للحياة!. وجعلوا من حياة الأبرياء في الجنوب. ومن زراعاتهم حقول تجارب، ومصادر مكاسب للمبيدات الضارة.. وللأسمدة الفاسدة.. والأدوية المنتهية الصلاحيات!..

لم يكن المسلمون في تاريخهم القديم والوسيط والحديث والمعاصر - هم الذين فعلوا ذلك، ولا شيئًا من ذلك..

ولو أن المسلمين قد أعدوا القوة التي أمرهم بها ربهم سبحانه وتعالى في سورة الأنفال ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ [الأنفال: ٦٠].. وتحدوا أسباب القوة والمنعة والعزة، فأخافوا الطامعين في ديارهم وثرواتهم، لما حدث هذا الإرهاب، الذي غدوا أولى ضحاياه في هذا العالم الذي نعيش فيه

تلك هي حقيقة الجهاد. والقتال. والإرهاب في مصطلح العربية والقرآن والإسلام... وصدق الله العظيم:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦]

* * * *

الهوامش:

(١) انظر: ابن القيم (إعلام الموقعين عن رب العالمين) ج٤، ص٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥ طبعة بيروت ١٩٧٣م (والطرق الحكمية في السياسة الشرعية) ص١٧ - ١٩. تحقيق د. جميل غازي. طبعة القاهرة ١٩٧٧م.

(٢) انظر في ذلك: د. محمد عمارة (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) ص٣ - ١٢ طبعة دار نهضة مصر. القاهرة ٢٠٠٤م.

(٣) مكسيموس مونرود (تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب. المجلد الأول ص٣، ٤) ترجمة: **مكسيموس مظلوم**. طبعة أورشليم ١٨٦٥م وقد حافظنا على أسلوب الترجمة كما هو -رغم ركاكته.

(٤) المصدر السابق. المجلد الأول. ص١٧٢-١٧٣.

(٥) سيجريد هونكه (الله ليس كذلك) ص٢٣ ترجمة: د. غريب محمد غريب. طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٥م.

(٦) د. توفيق الطويل (قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام) ص٩٧، ٩٨ طبعة القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

(٧) المرجع السابق. ص٧٣.

(٨) تقرر ذلك القاعدة الإسلامية التي أوردها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥هـ. ١٠٥٨ - ١١١١م] في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) ص١٤٣ والتي تقول: "ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم".

(٩) (قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام) ص٨١ - ٨٣.

(١٠) مجمع اللغة العربية (المعجم [illegible]) طبعة [illegible] ١٣٩٠هـ - [illegible]

(١١) انظر – على سبيل المثال: الجرجاني (التعريفات) طبعة القاهرة ١٣٥٧هـ–١٩٣٨م. والكفوي (الكليات). تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، طبعة دمشق ١٩٨٢م

(١٢) الراغب الأصفهاني (المفردات في غريب القرآن) طبعة القاهرة ١٩٩١م

(١٣) (الله ليس كذلك) ص٤٠، وانظر كتابنا (الإسلام في عيون غربية) ص٣٢٥، طبعة دار الشروق – القاهرة ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م.

(١٤) (الأعمال الكاملة) ج٥، ص١٠٧ طبعة بيروت ١٩٧٢م

(١٥) (الأعمال الكاملة) للإمام محمد عبده، ج٤، ص٦٩٥–٦٩٧ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق القاهرة ١٩٩٣م

(١٦) انظر في تفصيل ذلك كتابنا (الإسلام والحرب الدينية) ص٣٢–٣٩ طبعة مكتبة الشروق الدولية. القاهرة ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م

(١٧) د. نصر حامد أبو زيد: مجلة (وجهات نظر) القاهرة سبتمبر ٢٠٠٢م مقال «الإسلام والغرب: حروب الكراهية»

(١٨) د. محمد حميد الله الحيدر آبادي: محقق (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص١٦–٢١– طبعة القاهرة ١٩٥٦م.

(١٩) المصدر السابق. ص١١١

(٢٠) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج٨، ص١١٤، طبعة دار الكتب المصرية. القاهرة

(٢١) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص١٢٥

(٢٢) المصدر السابق. ص٣٢٦.

(٢٣) المصدر السابق. ص٣٢٨.

(٢٤) المصدر السابق ص٣٣٩، ٣٤٠ وانظر كذلك (تاريخ الطبري) ج٤، ص٥٢–١٥٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٧٠م

(٢٥) أبو يوسف (كتاب الخراج) ص٣٨–١٣٩ طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ وانظر كذلك البلاذري (فتوح البلدان) ص٨٩ تحقيق د. صلاح الدين المنجد طبعة القاهرة ١٩٥٦ م

(٢٦) أبو عبيد القاسم بن سلام (كتاب الأموال) ص١٥٦، طبعة القاهرة ١٩٦٨م. أبو يوسف (كتاب الخراج) ص١٢٠

(٢٧) (تاريخ الطبري) ج٤، ص١٥٦

(٢٨) يوحنا النقيوسي: (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، رؤية قبطية للفتح الإسلامي) ص٢٠١_٢٠٢ ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة ٢٠٠١م

(٢٩) د. صبري أبو الخير سليم: (تاريخ مصر في العهد البيزنطي) ص٦٢، طبعة القاهرة ٢٠٠١م.

(٣٠) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي) ص ٢٢٠

(٣١) (الله ليس كذلك) ص ٤٠ ـ ٤٣ .

(٣٢) جوم (الفلسفة وعلم الكلام) دراسة منشورة بكتاب (تراث الإسلام) تصنيف أرنولد ـ ص٣٦٣ ترجمة: جرجيس فتح الله. طبعة بيروت ١٩٧٢م.

(٣٣) صحيفة (الحياة) - لندن - في ٢٩/ ٢/ ٢٠٠٣.

(٣٤) صحيفة (الشرق الأوسط) ـ لندن ـ في ٨/ ٣/ ٢٠٠٣م.

(٣٥) صحيفة (العربي) ـ القاهرة ـ في ١٦/ ٣/ ٢٠٠٣م

(٣٦) صحيفة (الشرق الأوسط) ـ لندن ـ في ١٠/ ٣/ ٢٠٠٣م.

(٣٧) صحيفة (الحياة) - لندن - في ١٥/ ٣/ ٢٠٠٣م.

(٣٨) (نيوزويك) - الأمريكية ـ عدد ١١/ ٣/ ٢٠٠٣م.

(٣٩) (نيوزويك) - العدد السنوي ديسمبر ٢٠٠١م - فبراير ٢٠٠٢م.

(٤٠) مجمع اللغة العربية (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة ١٩٧٥م

(٤١) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن - في ٣/ ٢/ ٢٠٠٢م، وصحيفة (الحياة) - لندن - في ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٢م، وصحيفة (الأهرام) ـ القاهرة ـ في ١١/ ١٢/ ٢٠٠٢م

(٤٢) صحيفة (الأهرام) ـ القاهرة ـ في ٣/ ٣/ ٢٠٠٣م والأهرام ينقل عن مقال «جاري كاربيل» في «نيوزويك» الأمريكية بتاريخ ١٤/ ١/ ٢٠٠٢م

(٤٣) صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن - في ١٤/ ٢/ ٢٠٠٢م

(٤٤) من حديث لجاك بيرك في ٢٧/٦/١٩٩٥م بمصر [illegible] [illegible] [illegible] الإسلام في مصر المستشرق الفرنسي جاك بيرك، صحيفة (الشرق الأوسط) [illegible] في ١/١١/٢٠٠٠م.

(٤٥) جاك بيرك: ([illegible] [illegible] وموقفه من [illegible] [illegible]) ص١٣٤-٣٠، ترجمة حسن [illegible] طبعة دار سينا – القاهرة ١٩٩٤م

***

المصادر والمراجع

- **ابن القيم :** (إعلام الموقعين) طبعة بيروت ١٩٧٣م

  (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) تحقيق د. جميل غازي طبعة القاهرة ١٩٧٧م.
- **أبو عبيد بن سلام :** (كتاب الأموال) طبعة القاهرة ١٩٦٨م
- **أبو يوسف :** (كتاب الخراج) طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ .
- **إسرائيل شاحاك :** (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) ترجمة : حسن خضر طبعة القاهرة ١٩٩٤م
- **د. توفيق الطويل :** (قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام) طبعة القاهرة ١٩٩١م
- **الجرجاني ـ الشريف :** (التعريفات) طبعة القاهرة . ١٩٣٨م
- **جيوم :** (الفلسفة وعلم الكلام) بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) تصنيف أرنولد– ترجمة : جرجيس فتح الله – طبعة بيروت ١٩٧٢م
- **الراغب الأصفهاني** (المفردات في غريب القرآن) طبعة القاهرة ١٩٩١م
- **سيجريد هونكه :** (الله ليس كذلك) ترجمة د. غريب محمد غريب طبعة دار الشروق القاهرة ١٩٩٥م.
- **د. صبري سليم أبو الخير :** (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) طبعة القاهرة ٢٠٠١م.

- **الطبرى** : (تاريخ الطبرى) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٧٠م
- **الغزالى - أبو حامد** : (الاقتصاد فى الاعتقاد) طبعة مكتبة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ .
- **القرطبى** : (الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة
- **الكفوى - أبو البقاء** : (الكليات) تحقيق : د. عدنان درويش، محمد المصرى . طبعة دمشق ١٩٨٢م .
- **مجمع اللغة العربية - القاهرة** : (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة، ١٩٧٠م.
  (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة، ١٩٧٥م.
- **محمد حميد الله - محقق -** : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) طبعة القاهرة ١٩٥٦م .
- **محمد عبده - الإمام -** : (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٣م .
- **د. محمد عمارة** : (معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام) طبعة دار نهضة مصر - القاهرة ٢٠٠٤م.
  (الإسلام فى عيون غربية) طبعة دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٥م .
  (الإسلام والحرب الدينية) طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة ٢٠٠٥م.
- **مكسيموس مونروند** : (تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب) ترجمة مكسيموس مظلوم . طبعة أورشليم ١٨٦٥م .
- **د. نصر حامد أبو زيد** : مجلة (وجهات نظر) - القاهرة - عدد يناير ٢٠٠٢م .
- **يوحنا النقيوسى** : (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى) - حمة ودراسة : د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.

* **دوريات**

* **(الأهرام)** ـ القاهرة ـ

* **(الحياة)** ـ لندن ـ

* **(الشرق الأوسط)** ـ لندن) ـ

* **(العربى)** ـ القاهرة ـ

* **(نيوزويك)** ـ أمريكا ـ

رقم الإيداع ٢٠٩٨٨ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-1450-9

السماحة الإسلامية

• فى أول لقاء للدولة الإسلامية مع النصرانية.. كتب رسول الله ﷺ لأهلها عهداً جاء فيه: «لهم جوار الله وذمة رسوله.. أن أحرس دينهم بما أحفظ به نفسى وأهل الإسلام من ملتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..

• ولقد استمرت هذه السماحة سنة مرعية عبر تاريخ الإسلام. فالفتوحات الإسلامية حررت الأوطان.. والضمائر من القهر الرومانى والذى استمر عشرة قرون!.. حتى لقد اعتبرها المؤرخون النصارى «إنقاذاً للنصرانية.. وعقاباً إلهياً للرومان»!

• ولقد ظل «جهاز الدولة» بيد أهل البلاد.. حتى قال المستشرق الألمانى الحجة «آدم متز»: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»!!

• والآن.. يهيمن الغرب على عالم الإسلام.. وينشر فيه قواعده العسكرية.. وينهب ثرواته الاقتصادية. ويمارس تغريب الثقافة والتعليم. ويجعل من الأقليات «فيتو» يصادر حق الأمة فى الاحتكام إلى خصوصياتها الدينية والثقافية..

• ومع كل ذلك.. يتحدثون عن «السماحة الغربية».. وعن «تعصب الإسلام»!!.. وهى القضية التى يصدر لمعالجتها هذا الكتاب؟

حقيقة الجهاد.. والقتال.. والإرهاب

• إن خلط المفاهيم - مفاهيم «الجهاد».. و«القتال».. و«الإرهاب» - إنما يعيد تمثيل قصة الذئب والحمل على مسرح الواقع الذى نعيش فيه!..

• فالغرب الاستعمارى، الذى يحتل الكثير من بلاد الإسلام.. ويمارس الإبادة ضد الكثير من الشعوب الإسلامية.. والذى يدمر البيئة.. ويحول بلادنا إلى مقابر للنفايات القاتلة.. والذى يدنس مقدساتنا.. ويعبث بمناهج تعليمنا.. ويحرم شعوبنا من حقها فى تقرير المصير... هذا الغرب الاستعمارى، هو الذى يتهم الإسلام وأمته بالإرهاب!!!..

• وإذا كان الوعى بحقائق «الفكر».. و«الواقع».. و«التاريخ».. هو جزء من العدة والعتاد فى هذه المعركة التى فرضها علينا مشروع الهيمنة الغربى.. ندفع فى هذه المعركة التى فرضها علينا مشروع الهيمنة الغربى.. ندفع بها الظلم عن إسلامنا وأمتنا.. ونكسب بها الأصدقاء - حتى فى البلاد الغربية ذاتها - فإن جلاء حقائق المفاهيم - مفاهيم «الجهاد».. و«القتال».. و«الإرهاب» - إنما يمثل «معركة فكرية» ميدانها صفحات هذا الكتاب.

6223002801787